من الأدب الجاهلي

دراسة وتحليل ونقد

تأليف
دكتور
زكريا عبد المجيد النوتي
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٩١٩٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعـد ٠

فهذه دراسات لنصوص من الأدب الجاهلى ، ذلك السجل الضخم الحافل الذى يصور حياة العرب فى جاهليتهم ٠

وهو لضخامته وثرائه يصعب على المرء عملية الاختيار ، فماذا يأخذ وماذا يدع ؟

انها درر أدبية رائعة ، وكلها مغرية بالأخذ ، ومن هنا : لم يكن الاختيار ميسورا ٠٠

غير أنى تخيرت نصوصا من مدارس مختلفة تمثل – كلها مجتمعة – روح العصر وسماته ٠٠

★ اخترت قصيدة لشاعر من الصعاليك الذين شكلوا مدرسة لها خصائصها فى الأدب الجاهلى ٠٠ والقصيدة لشاعر متميز فيهم وهو : (تأبط شرا) ٠

★ والثانية : لشاعر فارس ، عاش حتى أدرك الاسلام ، ولكنه لم يسلم بل ناوأ الاسلام واشتد فى عدائه للرسول – ﷺ – انه (دريد بن الصمة) وقصيدته فى رثاء أخيه (عبد الله) فى الجاهلية ٠

★ والثالثة : معلقة الشاعر الشاب القتيل الذى قتل ولم يتجاوز العشرين من عمره ٠٠ انه طرفة بن العبد البكرى ٠

★ **والرابعـة :** لأشعر الشواعر على مـر العصور (الخنسـاء) ، والقصيدة من أروع مراثيها فى رثاء صخر .

★ ولمـا كان المشهور لدى المشتغلين بالأدب أن النقائض فن أمـوى النشـأة فقد اخترنا نقائض من العصر الجاهلى لشـاعرين من بنى سليم همـا :

العباس بن مرداس وخفاف بن ندبة .

★ ثم كان اختيارنا لقصـائد من الجاهلية فى وصف المـاء ومقدماته وذلك لمـا للمـاء من أهميـة لدى العـربى ، وأبرزت الحالة النفسية للشعراء فى كل منهـا .

★ ثم كان (النثر) ونصوصـه قليـلة ليست من الصعوبة فى الاختيار كالشعـر .

وقد ألقيت الضـوء حـول شخصية الشاعر صاحب النص ، وتحدثت عن شعره ، وآراء النقـاد فيـه ، ثم عرضت النص ، مبينـا مفـرداته ، وذكـرت مناسبة القصيدة ، وشرحتها شرحا تحليليـا ، ثم كانت الدراسات الفنيـة للألفاظ والأساليب ، والصـور ، والموسيقى .. الخ .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى الاختيـار والدراسـة .

وما توفيقى الا بالله عليـه توكلت واليـه أنيب

دكتور / زكـريا عبد المجيد النوتى

القـاهرة فى : ١ ينـاير ١٩٩٣ م

(القسم الأول : الشعر)

شاعر صعلوك(١)

« تأبط شرا » اليف الوحش

الصعاليك : جمع صعلوك .. وهو فى اللغة : الفقير الذى لا يملك ما يعينه على أعباء الحياة . وقيل : ان أصل المادة يدور حول الضمور والانجراد .

وتطلق كلمة الصعاليك ـ عند أهل الأدب ـ على فئة من الفقراء احترفوا السلوك العدوانى بقصد المغنم ، واتخذوا لأنفسهم طريقة خاصة للعيش .

وهؤلاء الصعاليك اما أن قبائلهم طردتهم وخلعتهم ، واما أن آباءهم لم يلحقوهم بهم لأنهم من ابناء الحبشيات السود ، وهؤلاء يطلق عليهم (اغربة العرب) واما انهم احترفوا الصعلكة باختيارهم .

واشتهروا بالسرعة الفائقة فى العدو ، وأبرزهم فيه (عروة ابن الورد) ، و (تابط شرا) ، و (الشنفرى) .

ـ وكانوا يهتمون بالحديث عن الفقر وأصدائه فى نفوسهم .

يقول (عروة بن الورد) لزوجه :

---

(١) راجع : الشعراء الصعاليك د/ يوسف خليف ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه د/ عبد الحليم حفنى ، الشعر الجاهلى : د/ شوقى ضيف ، فى الأدب الجاهلى : د/ على الجندى ، تاريخ الأدب العربى : بروكلمان ، تاريخ التراث العربى : فؤاد سزكين ، شعر تابط شرا : تحقيق سليمان داود القرة غولى : جبار تعبان الجاسم ، الصعلكة والفتوة فى الاسلام : أحمد أمين ، الأغانى للأصفهانى : جـ ٢١ ، وغيرها .

فريني أطوف في البلاد لعلني

اخليك ، أو اغنيك عن سوء محضر

فان فاز سهم للمنية لم أكن

جزوعا وهل عن ذاك من متأخر

وان فاز سهمي كفكم عن مقاعد

لكم خلف ادبار البيوت ومنظر

فهو مصر على الاغارة حتى لا تضطر زوجه الى ذل السؤال ، وهو بين امرين ، اما أن يقتل فهو أرحم لها ، واما أن يغنم فيعزها وابناءها .

- وتحدثوا عن تحملهم الجوع وصبرهم الشديد عليه .. يقول الشيفرى:

اديم مطال الجوع حتى أميته

واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل

- ورغم انه اشتغلوا بقطع الطريق الا أنهم تحلوا بصفات كريمة من عفة نفس ،واباء ، وأنفة .. الخ .

فهم يفضلون الموت بعزة على الحياة بذلة ، يقول (عروة) :

وما طالب الحاجات من كل وجهة

من الناس الا من اجد وشمرا

فسر في بلاد الله والتمس الغنى

تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ويقول (الشنفرى) :

واستف ترب الأرض كي لا يرى له

علي من الطول امرؤ متطول

ولـولا اجتنـاب الذام لم يلف مشـرب

يعـــــاش بـه الا لــدى ومـاكـــــل

ولـكن نفســا حــرة لا تقيــم بى

على الضيــم الا ريثمــا اتحــــول

وهــو القــائل :

وان مــدت الأيدى الى الــزاد لم أكـن

باعجلهــم اذ اجشــع القــوم اعجـل

الى غير ذلك من الأخـلاق الطيبة التى زخـر بها شعـر هـؤلاء الصعاليـك ٠

— وقد وصفوا أدوات الحـرب فى شعرهم وهى : السيف والرمح ، والقوس ، والدرع ٠٠٠

واطـرف اسلحتهم : سلاح العدو ، وهو من أساسيات الصعلكة ٠

ومن أشهـرهم وأشعـرهم :

تابـط شــرا

وهو : ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثـل بن عدى بن كعب ٠٠ ينتهى نسبه الى قبيـلة (فهم) التى كانت تنزل منطقة الحجاز الجبلية والتى كانت معـروفة بكثرة لصوصها ٠٠

ويقال : انه خال (الشنفرى) الصعلوك المشهور ٠٠

و (تابط شـرا) من أشهر الصعاليك فى العصـر الجاهلى ٠ كان فاتكا ، قـويا ، يغلب الرجال ٠٠٠

وقد سئل ذات مـرة : بم تغلب الرجال يا ثابت وأنت دميم ضئيل ؟ قال : باسمي ، انما اقـول ساعة ما القى رجـل : أنا تأبط شرا

فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت(٢) ٠

لقبه :

عرف بلقبه هذا واشتهر به ، مع أنه ليس فى صميم نسبه ، واختلف فى سبب تلقيبه بـ (تابط شرا) :

★ قيل : انه لقب به لبيت قاله من الشعر ، يصف فيه خروجه فى احدى غزواته متابطا شرا(٣) :

تابط شرا ثم راح او اغتدى

يوائم غنما أو يشيف على ذحل

★ وقيل : ان أمه عندما سئلت عنه قالت : لقد تابط شرا وخرج ، وكان قد وضع تحت ابطه سكينا أو سيفا ٠٠

★ وقيل : ان أصحاب الثروات والأموال هم الذين لقبوه بـ (تابط شرا) لخوفهم منه ، ولشجاعته واقدامه ، وكثرة تقلده سيفه ، وتاهبه لكل مكروه(٤) ٠٠

وكان (تابط شرا) أعدى ذى رجلين وذى ساقين ، وأبصر ذى عينين ، وفى ذلك يقول(٥) :

لا شىء أسرع منى غير ذى عذر

أو ذى جناح بجنب الريد خفاق

(٣،٢) الأغانى : جـ ٢١ ص ١٢٥ وما بعدها ، والديوان : ص ١٣٥ ، غنما : أى غنيمة ، يشيف : يغتدى ، ذحل : الثار أو طلب مكافاة بجناية جنيت عليك ٠٠

(٤) مقدمة الديوان : ص ١٥ ٠

(٥) الجمهرة : ٢٧٦/١ ، والمفضليات : ٢٣ ٠

وكان اذا جاع لم تقم له قائمــة ، ينظــر الى الظباء ، فينتقى أسمنها ، ثم يجــرى خلفــه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فياكله(٦) ٠

وله مع الغــول قصص فى شعــره ، ويبدو أنه قد نسجت حــوله الاساطير حتى صــار كانه بطل أسطوري خــارق ٠

ومات (تابط شرا) مقتولا ، قتــل فى ديار هذيل فى غــزوة من غــزواته ، وكان البيت الذى أغار عليــه لــ (ساعدة بن سفيان) أحد بني حــارثة بن قــريم فــرمى ابن لــ (ســاعدة) يسمى (سفيان) ـ كان يربا لأبيــه ـ تابط شرا بسهم فأصاب لبته فقتله(٧) ٠

وهناك روايات أخــرى حول مقتله ٠

شــاعرية تابط شــرا وشعره :

اهتم القدماء بشعر (تابط شرا) ولم يغفــلوه ، بل وضعوه فى مقــامه اللائق به ٠

وأول من تعرض لشعره (المفضل الضبى) فى (المفضليات) ٠٠ فقد افتتح المفضليات بقصيدة (تابط شــرا) القافية التى يقول فيها :

يا عيد مــــالك من شــــوق وابــراق
ومــر طيــف على الأهـــــوال طــراق

وكون المفضــل يفتتح مجموعته الشعرية بقصيدة لتــابط شــرا يدل على مكانة شعره عنده ٠

وأورد (الخالديان) فى الأشباه والنظــائر شعرا لــ (تابط شرا) فقالا : ومن جيد المراثى ونادرها ـ لفظا ومعنى ـ قول (ثابت بن جابر ابن سفيان الفهمى) يرثى (الشنفرى) بقــوله :

---

(٦) الأغانى : جـ ٢١ ٠

(٧) شرح أشعار الهذليين ٢/٨٤٥ ، معجم ما استعجم ١/٤٢٤ ٠

فــان تــك نفس الشنفــرى حــم يومها

وراح لــه مــا كــان منــه يحــاذر

فمــا كان بدعـــا ان يصــاب فمثـــله

اصيب وحـــم الملتجـــون الفـــوادر

وفى عصــرنا هــذا اهتم الشــاعر الألمــاني (جــوته) بقصيدة لتابط شــرا وترجمها(٨) ٠

شعـــره :

تعددت اغــراض شعر (تابط شــرا) فكان منها : الفخــر بنفسه وبجماعة الصعاليك التى ينتمى اليهــا ٠٠ فمن فخــره بنفســه قوله فى رجــل تسمى باسمـــه :

الا هـــل اتى الحسنــاء ان حليلهـــا

تابــط شـــــرا واكتنيــت ابــا وهــب

فهبــه تسمى اسمـــى وسميــت باسمــه

فــاين له صــبرى على معظــم الخطب

واين لــه بأس كبــأسى وســـــــورتى

واين لــه فى كـــل فادحـــــة قلبـــى

والحـكمة كقــوله :

واجمــل مــوت المــرء ـ ان كــان ميتا

ولابــد يومـــا ـ مـــوته وهو صـــابر

وخفض جــاشى ان كــل ابن حـــــرة

الى حيث صــرت لا محـــالة صـــائر

---

(٨) راجــع مقدمة الديوان : ص ٥٩ وما قبلها ٠

وقد وصف الحرب وأدواتها ، وبلاءه فيها ..

ويكاد شعره يخلو من الغـزل فى مقدمات قصـائده ، وهى سمـة عـامة فى شعر الصعاليك .

واما المدح فقليـل فى شعره ، وهو من نصيب رفقـائه فى الصعلكة ، « ذلك ان المدح عند الشعراء مرتبط بالتكسب والاستجداء ، وتابط شرا والصعاليك ابعد ما يكونون عن السؤال والتطلـع الى ما فى يد الغير ، فلقد اعتـاد الشاعر ان يكسب قـوته بقوته »(٩) .

* * *

(٩) الصعلكة والفتوة في الاسلام : أحمد أمين ص ٤٥ .

النــص

« اليـف الـوحش »(١)

١ ـ وقـــالوا لهـــا لا تنكحيــه فــانه
لأول نصـــل أن يـــلاقى مجمعـــــا(٢)

٢ ـ فلم تر مـن رأى فتيـــلا وحـــاذرت
تايمهـــا مـن لابس الليـــل أروعـــا(٣)

٣ ـ قليـل غـــرار النـوم أكبـر همـــه
دم الثـــار أو يلقى كميـــا مقنعـــا(٤)

---

(١) استعرت هذا العنوان من كتاب (الروائع من الأدب العربى) ، والقصيدة فى الأغانى (دار) ١٤٥/٢١ ، وشعر (تأبط شرا) ص ٩٧ ـ ١٠٠ ، والروائع من الأدب العربى ص ٤٤٩ وما بعدها.

(٢) لأول نصـل : أى يموت لأول ضربة سيف . والمصدر المؤول بدل من نصـل : أى يموت لأول لقـائه جمعا من المغيرين . مجمعا : جمعـا من الأعـداء .

(٣) الفتيـل : الخيط فى شق النواة ، والفتيل والنقير والقطير يضرب بها المثـل فى حقارة الشىء وعدم نفعه . والرأى الفتيـل : الضعيف والتـأيم : الترمل . لابس الليـل : كثير الغارات ليـلا ، فهو من أبنـاء الليل الذين يفعلون أفاعيلهم بالليـل ، وقيل هو كناية عن الحذر . أروع : ذكى الفؤاد أو يعجب بشجاعته .

(٤) غـرار النوم : النوم الخفيف . الكمى : البطـل الشجاع فى كامل سلاحه . المقنع : الملثم الذى يلبس القناع .

٤ - قليــل ادخــار الــزاد الا تعلـــة
فقـد نشـز الشـر سوف والتصق المعى (٥)

٥ - يبيت بمغـنى الـوحش حـتى الفنـه
ويصبـح لا يحمى لهـا الدهـر مرتعـا (٦)

٦ - رأين فـتى لا صيـد وحـش يهمــه
فـلو صـافحت انسـا لصـافحنه معـا

٧ - ولـكن أربـاب المخــاض يشفهــم
اذا افتقــدوه أو رأوه مشيعـــا (٧)

٨ - وإنى - ولا عـــلم - لأعـــلم أنـنى
ســالقى سنـان المـوت يرشـق اضلعـا (٨)

٩ - على غـــرة أو جهـــرة من مـكاثر
أطــال نـزال المـوت حتى تسعسعـا (٩)

---

(٥) التعـلة : الاكتفاء بما يتعلل به من الزاد : الشر سوف : الطرف اللين من الضلع مما يلى البطن . المعى : واحد الأمعاء . نشـز الشـر سوف : برز .

(٦) مغنى الوحش : مقـامه .

٧ - أرباب المخاض : أصحاب الابل الحوامل . يشفهم : يؤرقهم ويكد عيشهم ويهزلهم ، ويسبب لهم العناء فى المحافظة عليها . مشيعا : قد تكون من الشيوع والمعنى : حاضر ، وقد يكون المعنى أن له
. . . . إذا اقتـفروه . . . .
أى تتبعوا أثره فحينئذ يكون بمفرده ومع ذلك فهم يخافونه .

(٨) سنان الموت : أى الموت نفسـه ، وقد شبهه بالسـلاح . يرشـق أضلعا : يرمى أضلعـه .

(٩) غـرة : غفـلة . مكاثر : كثير الغارات ، يعنى نفسه ، تسعسع : فنى وذهب .

١٠ - وكنت اظن الموت فى الحى أو أرى
الذ واكرى أو اموت مقنعا (١٠)

١١ - ولست ابيت الدهر الا على فتى
اسلبه أو اذعر السرب اجمعا (١١)

١٢ - ومن يضرب الابطال لابد أنه
سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

١٣ - يماصعه كل يشجع قومه
وما ضربه هام العدا ليشجعا (١٢)

المناسبة :

قال (تابط شرا) هذه القصيدة بعد أن خطب امراة ، فأرادت أن تتزوجه ، ووعدته بذلك ، فلما جاءها وجدها قد رغبت عنه ، فقال لها : ما غيرك ؟

فقالت : والله إن الحسب لكريم ، ولكن قومى قالوا : ما تصنعين برجل يقتل لأول نصل ، وتبقين بلا زوج ، فانصرف عنها وهو يقول هذه القصيدة ٠

ويتحدث فيها عن ثلاث طوائف من هؤلاء المالة كان يوجه إليهم غزواته : اصحاب المواشى ، وأصحاب المزارع الخصبة ، وأصحاب النوق الحوامل ٠

---

(١٠) فى الديوان : فكيف ٠ روى (الد) ومعناه : أخاصم ٠ أكرى : أزيد ٠ المقنع : من يلبس الخوذة على رأسه ٠

(١١) أسلبه : استولى على كل ما معه من مال ومتاع ٠

(١٢) يماصعه : يجالده ويقاتله ٠ ليشجعا : أى ليقال انه شجاع ٠

شـرح الأبيـات :

لقد عـرف النـاس عن تابط شرا انه مغـامر ، يستهين بالموت ، فهو معـرض له بين الحين والآخـر ، حتى انهم نصحوا الفتاة أن ترفض الزواج منـه ، حتى لا تتايم سريعـا بمجـرد أن يصيبه أول سهـم من جمـاعة يلاقيهم ٠

ان الفتـاة لم تعـر عرض الزواج التفاتا لأنها خشيت هذا التايم ٠٠

ويتحدث الشـاعر عن نفسـه ، فهو الحذر اليقظ الذى حين ينـام لا يستغرق فى نومه بل انه يكون الى اليقظـة أقرب ، وكيف يستغرق فى النوم وأكبر همه الثـأر الذى يتطلب يقظـة وحذرا ولاسيما انه يلقى شجعانا صناديد بواسيـل لابسى الدروع مقنعين ٠٠ واذا لم يطلبهم فانهم يطلبـونه ٠

وانه لا يدخـر زادا ، ولا يريد منـه الا ما يسد به رمقـه ، ويتعلل به ، وقد ظهـر أثر الجـوع فى جسـده وأضـلاعه حتى برزت رءوس الأضـلاع والتصقت بطنه بظهره لخلوها من الطعـام ، فهو يؤثر غيره من الفقـراء الجياع على نفسـه ٠

وبعد أن تحدث عن طعـامه وطريقته فى الأكل ، أخذ فى الحديث عن موطنه الذى يعيش فيـه فذكر أنه يبيت فى المكان الذى يبيت فيـه الوحش لدرجـة أن الوحوش ألفتـه لطول عيشـه بينها ، مسالمـا لها ، فأنست به ، واطمانت اليـه ، وهو لا يمنعها من الرعى فهى لا تخافه لأن همتـه مصروفة الى غيرها ٠ وهذا مما يدل على قوة ثباته ٠

واذ كانت الوحش تانس به ، فان أرباب الابل الحوامل يخشـونه على ابلهم ، فهم يفزعون حين يفتقدونه فلا يجدونه ، أو حين يرونه حاضـرا ، انه مصـدر فـزع دائم لهـم فى حـله وترحـله ، فى غيابه

وحضـوره ، اذ يكلفهـم الكثـير فى المحـافظة على ابلهـم خـوفا من اغـارته عليهـا ٠

وهذه احدى الطوائف التى يغير عليهـا (أصحاب النوق الحوامل) ويقـول :

اننى على يقين من أن المـوت أمـر لا مفـر منه ، واننى مهمـا عمرت فلابد أن ألقى سنانه ترمى أضلعى وتودى بى ٠ وقد يكون ذلك على حين غفـلة أو جهارا ٠ وحينئذ ينال المـوت من فارس أكثر من الاغـارة والغزو وعشق نزال الأبطال حتى ولى أكثره ٠

وقد كنت أعـدنى ميتـا ما لبثت فى الحى أو فى موطن من المواطن حتى أخـرج للغزو فالتـذ به ، وأزيد متعـة ، أو أموت وعلى رأسى البيضـة (الخـوزة) ٠

وقيـل : المعنى : ان الشاعر يرى أن الموت الحقيقى فى البقـاء فى الحى ذليـلا ، لا فى الخروج للغـارة والعدو المتصـل حتى المـوت فى سـاحة الكفاح بطلا مسلحا فى سبيل مبادئه وأهدافه ، انه لا يريد أن ينتظـر أجله وهو قانـع بحيـاة الذل والهوان على هامش القبيلة وانما يريد أن يخـرج اليـه ليلقـاه فى سـاحة الكفاح المسلح من أجـل الحـرية والكرامة(١٣) ٠٠

وانه لا يتربص لأناس بعينهم ، ولكنه يتعرض لكل من يسـوقه حظـه العاثر النكد الى منطقة تربصـه ، وهو لا يقر له قرار ، ولا يرتاح له بال الا اذا أصـاب فـردا يسلبه كل ما معـه ٠

وانه ليتوقـع أن سوف يلقى مصـرعه يوما ، فمن الطبعى أن الذى

---

(١٣) راجع : الروائع من الأدب العـربى - الجـزء الأول - العصـر الجاهلى : ص ٤٥١ وما بعدها ٠

يطـارد من أعداء كثير لابد أن ينـالوه يوما • ولكأنى به يلتمس العذر لتلك الفتـاة فى رفضها الزواج من رجـل هـذه نهايته ـ وقد تكـون قريبـة •

وفى النهـاية يؤكد فتوته وقوته وبسالته حين يذكـر أن أعداءه يشجعهم أقـوامهم ويقفون من خلفهم ، أما تابط شرا فانه لا يضـرب هام أعدائه بغيـة قول القوم عنـه انه شجاع ، فذلك أهون شىء عنده • وقد يكون المعنى : ان اقـوام خصـومه يشجعونهم ويساندونهم ، أما هو فيقف وحده فى وجه هؤلاء ولا يحتاج الى سند أو معين •

* * *

التعليــق :

حـين تقـرأ هـذه القصيدة تشعر أن أضطرابا قد أصـاب ترتيب الأبيات فيهـا ، وهذا راجع الى الرواة ، فالقصيدة قد وردت فى الأغانى وفى الحماسة ، وفى الديوان والترتيب مختلف فى كل منها عن الأخرى•

وترتيبها فى الأغـانى ـ فيما أرى ـ أقـرب الى حقيقتها التى نطـق بها الشاعر ، وأدنى الى الوحدة العضوية ، والى الواقع أيضا • ولننظـر مثـلا ـ فى ختام القصيدة فنجدها ختمت فى الأغانى بهذا البيـت :

ومـن يضـرب الأبطـــال لابد أنـّه

سيلقى بهم من مصـرع الموت مصـرعا

فهو بمثـابة قفـل محكم للقصيدة ، ويتفق مع الواقـع ، فنهاية الحيـاة المـوت وعلى الأبطال ـ أمثـال تابط شرا ـ أن يتوقعوا القتـل على يد أحد أعدائهم ، وكأنه ـ كما ذكـرت ـ يعود الى بدء القصيدة ، ويلتمس عذرا لتلك الفتاة التى ان تزوجته ستتايم اليوم أو غدا •

من الألـوان البيـانية :

قـــوله :

. . . . . **لأول نصـل أن يلاقى مجمعا**

كناية عن قتله من أول جماعة يلقونه ٠

وقـــــوله :

فلم تـرى مـن راى فتيـلا ٠ ٠ . . . . .

كناية عن عدم سـداد رأيها

وقـــــوله :

لابس الليـــــل . . . . . .

كناية عن كثرة غاراته بالليل ، وقيل : كناية عن الحذر ٠

خصـائص شعـر تابط شـرا :

حين نتحدث عن شعر تابط شـرا فان الحديث يكون عن جـزء من شعر الصعاليك ، ذلك الشعر الذى اتسم بسمات معينـة تميز بها عن سـائر الشعر الجاهلى ٠٠

وهذه الخصائص وان اشترك فيهـا الصعاليك الا أن درجات شيوع خاصية من الخصائص تتفاوت فيما بينهم قلة وكثرة ، وهذا أمـر بدهى فالبيئة وان كانت واحدة الا أن الشخصيات متميزة متفاوتة ٠

ومن خصائص شعر الصعاليك :

١ ـ غلبـة المقطوعات على شعرهم ، وهذا يتلاءم مع طبيعة حياتهم ، وظـروف معيشتهم ، فهم مشغولون بالاغارة والحـرب ، وليس عندهم وقت لتطويل قصـائدهم ٠

وقد يكون هذا الشعر ناقصا ، بسبب عدم اهتمام قبائل الصعاليك بحفظ ورواية هـذه الأشعار ٠

وأطـول ما (لتابـط شرا) قصيدتان ، احـداهما فى رثـاء (الشنفرى) وهى سبعة وعشرون بيتـا ، والثانية - وهى قافية - ستة وعشرون بيتـا .

٢ - الوحدة الموضوعية : فمن اليسـير وضـع عنوان للقصيدة يدل عليها من بدايتها الى نهايتها ، فالقصيدة ذات موضوع واحد ، وليس فيهـا مقدمة طللية ، بخلاف الشعر الجاهلى فالقصيدة فيه متعددة الموضـوعات .

٣ - شيوع الألفـاظ الغـريبة .

فالناظر فى شعر الصعاليك يشعر - أحيـانا - أنه أمام مجموعة من الطـلاسم اللفظيـة ، يضطـر ازاءها للرجـوع الى المعـاجم اللغـوية المطـولة(١٤) ..

وهنـاك الفـاظ لم يعثر عليهـا اللغويون الا فى شعر الصعاليك ولعـل أكثر الصعاليك اغرابا (تابط شرا) .

يقول ابن منظور(١٥) : ان (الخيعابة) - بمعنى الردىء - لم يسمع الا فى قول (تابط شرا) .

ولا خـــرع خيعــــابة ذى غـوائــــل

هيــــام كجفـــر الأبطـــح المتعيـــــل(١٦)

---

(١٤) الشعراء الصعاليك : يوسف خليف ص ٣٣١ .

(١٥) اللســان : (خعب) .

(١٦) اللسان : خعب ، والخرع : السريع التثنى والانكسار . خيعابة : الردىء أو القصف المتكسر ، وقيل المـابون . الأبطح : مسيـل واسع فيه دقاق الحصى . المتهيل : شديد الانحدار .

ويذكـر ابن سيدة أنه يقال رجل ترعيـة لمن صناعته وصناعة آبائه الرعـاية ، أما ترعى بغير هاء ، فانه نادر ، وقد ورد فى قـول تأبط شـرا(١٧) ٠

ولسـت بتـرعى طـــويل عشــاؤه ٠

يؤنفهـــا مستـأنف النبت مبهــــل

وديوانه ملىء بهذه الألفـاظ الغريبة ٠٠ ولذلك زخرت كتب اللغة والمعـاجم بشعـره ٠

٤ ـ الواقعيــة ٠٠ وهى من سمات الشعر الجاهلى عمومـا والصعاليك خصـوصا ٠

ومن مظاهر هذه الواقعيــة :

(أ) أن شعـرهم بمثـابة مذكـرات شخصية ، دون كل منهم فيـه خواطره ، دون تزييف ، ولا مبالغـة ، فشعرهم صورة لحياتهم بفقرها وجوعهم ، وهزالهم ، وهوانهم على الناس ٠

(ب) ظهور الخبرة العملية فى شعرهم(١٨) ٠ فحين يتحدثون عن الحيوان ـ مثـلا ـ فحديثهم حديث الخبير ، ومن هنا اعتمد أصحاب كتب الحيوان ـ كالجاحظ ـ على شعرهم فى هـذا الصـدد ٠

(فتأبط شرا) حين يصف الحية يذكـر أن خروجها يكون (بعيد غروب الشمس) وهو تحديد دقيق لوقت خـروج الأفاعى من جحورها تؤيده الخبرة العمليـة ، وهذا ليس بغريب عليـه ، فهو مضطر الى

---

(١٧) اللسان : رعى ، يؤنفها : يتتبع بها أنف المـرعى ٠ مبهـل : تارك ابله مهمـلها اياها ٠

(١٨) راجع الشعراء الصعاليك : يوسف خليف ٢٨٧ ، ٢٨٨ ٠

ملاحظة هذه الظواهر ، وقد قيل له(١٩) : « هذه الرجال غابتها فكيف لا تنهشك الحيات فى سراك ؟ فقال : انى لا أسرى البردين يعنى أول الليل لأنها تمور خارجة من جحرتها ، وآخر الليل تمور مقبلة اليها » .

(جـ) الدقة فى التعبير(٢٠) : بحيث تكون العبارة واضحة محددة تحديدا لا غموض فيه ولا التواء . فحين يعتذر (تأبط شرا) عن فراره من أعدائه مخلفا صاحبه لهم نراه يضع المسألة وضعا (حسابيا) فماذا يفعل وقد نظر فاذا هؤلاء الأعداء أكثر من ثلاثة أمثالهما ؟ ولو أنهم كانوا مثلهما أو ثلاثة أمثالهما ما فر مخلفا صاحبه لهما :

تقول : تركت صاحبا لك ضائعا(٢١)

وجئت الينا فارقا متباطنا

اذا ما تركت صاحبى لثلاثة

أو اثنين مثلينا فلا ابت آمنا

٥ ـ عدم التزام التصريع . وهى ظاهرة توشك أن تكون مطردة فى كل شعرهم .

---

(١٩) الأغانى : ٢١/١٣٠ (دار) .

(٢٠) الشعراء الصعاليك : ص ٢٨٤ .

(٢١) الأغانى : ٢١/١٣٥ . فارقا متباطنا : فارقته وجئت متخفيا .
وفى البيت الثانى : يدعو على نفسه ان كان ترك صاحبه لعدد قليل وانما هو جمع لا قبل لهما به .

ويعلل الدكتور يوسف خليف لذلك قائلا (٢٢) :

« وتعليلها عندى يرجع الى تلك الثورة التى كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعهم ، والى تلك الحرية التى كانوا يعيشون فيها والتى كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم .. فكان شعرهم ثائرا على الأوضاع الفنية فى الشعر الجاهلى القبلى » .

* * *

---

(٢٢) الشعراء الصعاليك : ص ٢٧٢ .

دريد بن الصمة يرثى أخاه

الشاعر :

هو : دريد بن الصمة ، من جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان .

كنيته : أبو قرة .

وهو احد الشجعان المشهورين ، وذوى الرأى فى الجاهلية ، وقد كان أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثرا ، وأكثرهم ظفرا ، وأيمنهم نقيبة عند العرب(١) .

قال أبو عبيدة(٢) :

كان دريد بن الصمة سيد بنى جشم وفارسهم وقائدهم ، وكان مظفرا ، ميمون النقيبة ، غزا نحو مائة غزاة ما أخفق فى واحدة منها .

كان دريد صديقا لمعاوية بن عمرو الشريد أخى الخنساء ، فمر بالخنساء يوما وهى تهنأ بعيرا لها وقد تبذلت حتى فرغت منه ، ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ودريد بن الصمة يراها وهى لا تشعر به فاعجبته ، فانصرف الى رحله وأنشأ يقول :

حيوا تماضر واربعوا صحبى
وقفوا فان وقوفكم حسبى
اخناس قد هام الفؤاد بكم
واصابه تبل من الحب

---

(١) الأغانى : ٣/١٠ .

(٢) نفسه .

مـــا ان رايـــت ولا سمعـــت بـــه
كاليـوم طـــالى اينـــق جـــرب
متبـــذلا تبـــدو محـاسنـــــه
يضـــع الهنـــاء مواضـــع النقـــب(٤)
متحســـرا نضـــح الهنـــاء اذا
نضـــح العبـــير بريطـــــة العصب(٥)
فسليهـــم عـنى خنـــاس اذا
عض الجميــع الخطــب مــا خطــبى ؟

فلمــا اصبح غدا على ابيها فخطبها اليــه ، فقال له ابوها(٦) : مرحبا بك أبو قــرة ! انك الكريم لا يطعن فى حسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ، والفحـل لا يقـرع انفـه ٠٠

ولكن لهذه المــراة فى نفسها ما ليس لغيرها ، وانا ذاكــرك لهــا وهى فاعــلة ٠ ثم دخـل عليهــا وقال لها : يا خنســاء ، أتاك فــارس هوازن وسيد بنى جشم دريد بن الصمــة يخطبك وهو من تعلمــين ، ودريد يسمع قولهما ٠

فقــالت :

يا أبت أترانى تاركة بنى عممى مثـل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هــامة اليوم أو غد !!

وكان دريد قد سمع ردها هذا ٠٠ ووصـله هجاؤها اياه قائلة :

---

(٣) نفسه : ١٠/٢٣ ٠
(٤) الهناء : القطران ٠ النقب والنقب : القطع المتفرقة من الجرب
(٥) فى رواية (العطب) وهو : القطن ٠
(٦) فى رواية الاغــانى ، ط دار الكتب انه خطبهــا الى اخيها وهو الصحيح اذ لا يتاتى ان تقول لابيها (هبلت) ٠

أتخطبني ، هبلت على دريد
وقد أطردت سيد آل بدر

معاذ الله ينكحني حبركى
يقال أبوه من جشم بن بكر

ولو أمسيت في جشم هديا
لقد أمسيت في دنس وفقر

فغضب دريد من قولها وقال يهجوها :

وقاك الله يا ابنة آل عمرو
من الفتيات أمثالي ونفسي

فلا تلدي ولا ينكحك مثلي
اذا ما ليلة طرقت بنحس

لقد علم المراضع في جمادى
اذا استعجلن عن حز بنهس(٧)

الى أن يقول :

وتزعم انني شيخ كبير
وهل خبرتها أني ابن أمس

فقيل للخنساء : ألا تجيبينه !! فقالت : لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه(٨) .

وقد أدرك الاسلام لكنه لم يسلم بل كان من ألد أعداء النبي

---

(٧) الحز : القطع . النهس : تعرق ما على العظم وانتزاعه بمقدم الأسنان .

(٨) القصة بكاملها في الأغاني ١٠/٢٣ وما بعدها .

- ﷺ - وقتل سنة ٨ هـ يوم حنين وهو فى صفوف المشركين ، وكان حينئذ شيخا كبيرا ضريرا ، فسال : بأى واد أنتم ؟

قالوا : بأوطاس ٠ قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس ، ثم قال لمالك بن عوف :

ما لى أسمع بكاء الصغير ، ورغاء البغير ، ونهاق الحمير ، ويعار الشاء فقال مالك :

يا أبا قرة ، انى سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ، وأردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه ، فانقض به دريد ، ثم قال :

رويعى ضأن والله ! وهل يرد المنهزم شىء ؟

وقال : هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه ، وقال :

يا ليتنى فيها جذع ... اخب فيها واضع
اقود وطفاء الزمع ... كانها شاة صدع(٩)

★ ★ ★

منزلته الشعرية :

نشأ دريد فى أسرة شاعرة ، فهو من بيت شعر ٠٠ فأبوه (الصمة) كان شاعرا ، وقد أورد له الأصفهانى شعرا فى الأغانى ٠

---

(٩) الأغانى ٣٠/١٠ وما بعدها ، والعقد الفريد ١١٩/١، ١٢٠ ، وهى فى كتب السيرة أيضا ٠ والجذع : صغير السن ٠ والخبب والوضع : ضربان من السير للابل ٠

الوطفاء : طويلة الشعر ٠ الزمع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة ٠ صدع : وسط بين العظيم والحقير ٠

وكان أخوه (مالك بن الصمة) شاعرا ..

ثم كان له ابن يقال له (سلمة) ـ شاعرا أيضا .

وبنت يقال لها (عمرة) شاعرة كذلك(١٠) .

واما عن منزلة (دريد) لدى النقاد :

فقد جعله الأصمعى من الفحول ، وفضل شعرا له على شعر النابغة الذبيانى(١١) .

وذكر ابن قتيبة له شعرا تحت عنوان : (ومن جيد شعره ..) وذكر أبياتا من النص الذى معنا(١٢) .

وجعله ابن سلام أول الشعراء الفرسان قال :

وقد كان أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثرا ، وأكثرهم ظفرا ، وأيمنهم نقيبة عند العرب ، وأشعرهم « دريد بن الصمة »(١٣)

وقال أبو عمرو بن العلاء :

أحسن شعر قيل فى الصبر على النوائب قول (دريد بن الصمة) حيث يقول :

تقول : ألا تبكى أخاك ! وقد أرى
مكان البكا لكن بنيت على الصبر

لمقتل عبد الله والهالك الذى
على الشرف الأعلى قتيل أبى بكر

---

(١٠) الأغانى ٤/١٠ ، ٢٧ .
(١١) فحولة الشعراء : ٣٠ ، الموشح : ٤١ ، تاريخ التراث العربى : ٢٧٣/٢ .
(١٢) الشعر والشعراء : ٧٥٠ .
(١٣) الأغانى : ٥/١٠ .

الى أن يقــول :

يغـــــار علينـــا واتــرين فيشتـــفى

بنـا ان اصبنـــا او نغـــير على وتـر

قسمنـا بذاك الدهـــر شطـرين بيننـا

فـلا ينقضيـى الا ونحـن على شطــر (١٤)

وذكـر أبو هـلال العسكرى فى ديوان المعـانى : أن ابلـغ ما قيل فى مسـاعدة الرجـل أخاه قول (دريد بن الصمة) .

فلمـا عصـونى كنت منهـم وقـد ارى

غـــوايتهم واننى غــــير مهتــــد

* * *

(١٤) الأبيات فى الأغانى والحماسة والبيان والتبيين ٣/٣٣٠،٣٣١ ، ورواية البيت الثـانى له :

فقلـت : أعبـد اللـــه ابكى أم الـذى

على الجـدث النـائى قتيـل أبى بكـر

الواتر : الذى يدرك وتره أى ثأره .

النص

١ - أَرَثَّ جَدِيدُ الحبلِ من أُمِّ مَعْبَدِ
بعاقبةٍ وأخلفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

٢ - وبانَتْ ولم أَحْمَدْ إليكَ جِوَارَها
ولَمْ تَرْجُ منا رِدَّةَ اليومِ أو غدِ

٣ - أعاذلُ : ان الرُّزْءَ فى مثلِ خالدٍ
ولا رُزْءَ فيما أهلَكَ المرءُ عن يدِ

(١) أرث : أصبح رثا باليا • بعاقبة : : أى فى النهاية كقولهم : عقب كذا •

(٢) بانت : فارقت • الردة : الرجوع •

(٣) العاذل : اللائم وهى زوجه التى لامته لشدة وجده وحزنه على أخيه • الرزء : المصيبة • خالد : أما أخوه خالد بن الصمة الذى قتله بنو الحرث بن كعب ، وأما عمه خالد بن الحرث الذى قتله بنو أحمس وهم بطن من شنوءة •

وقد ذكر الأصفهانى اخوة دريد وعد منهم : خالداو عبد الله . قال محقق الأغانى : والتصريح بهذا الاسم فى هذا الشعر الذى قاله دريد فى رثاء أخيه عبد الله خاصة يدل على أن عبد الله وخالدا وعارضا ثلاثة أسماء لشخص واحد ، وقد صرح شارح الحماسة بذلك حيث قال :

عارض هو أخو دريد وكانت له ثلاثة أسماء : عارض ، وعبد الله ، وخالد • وثلاث كنى هى : أبو أوفى ، وأبو ذفافة ، وأبو فُرعانْ وأبو فَرْغانْ •

٤ - وقلتُ لعُرّاضٍ وأصحاب عارضٍ
وَرَهطِ بنى السوداءِ والقومُ شُهَّدِى

٥ - عَلانيةً ظنوا بالفي مُدَجَّجٍ
سَراتُهُم في الفارسيّ المُسَرَّدِ

٦ - أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

٧ - فلما عصونى كنت منهم وقد أرى
غوايتهم وانني غير مهتد

---

(٤) عراض :قوم بنى جشم كان دريد قد نهاهم عن النزول حيث نزلوا فعصوه . ورهط بنى السوداء منهم وهم أصحاب أخيه عبد الله .
القوم شهدى : شهودى .
ورواية البيت فى الأغانى والعقد الفريد :
وقلت لعارض وأصحاب عارض :
. . . .

(٥) علانية : على مسمع من القوم . ظنوا : أيقنوا ، أو معناه : ماظنكم بالفين من الأعداء راصدين لكم يرقبونكم . المدجج : التام السلاح، من الدجة وهى شدة الظلمة ، لأن الظلمة تستر كل شىء والمدجج يستر نفسه بالسلاح . سراتهم : أشرافهم وسادتهم . الفارسى المسرد : عنى به الدروع المتتابعة الحلق فى نسجها .

(٦) منعرج اللوى : موضع كانت به الوقعة التى قتل فيها أخوه عبد الله بن الصمة .
ورواية البيت فى العقد :
. . . . بمنقطع اللوى
. . . .

٨ - وهل انا الا من غزية ان غوت
غويت ، وان ترشد غزية ارشد

٩ - وان تعقب الأيام والدهر تعلموا
بنى قارب انا غضاب بمعبد

١٠ - تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارسا
فقلت : اعبد الله ذلكم الردى ؟

١١ - وان يك عبد الله خلى مكانه
فما كان وقافا ولا طائش اليد

١٢ - ولا برما اذا الرياح تناوحت
برطب العضاه والضريع المعضد

---

(٨) غزية : قبيلة من هوازن تنسب الى غزية بن جشم أحد أجداد دريد بن الصمة ٠ غويت : اتبعت غوايتهم ٠

(٩) تعقب الأيام : تمر وتأتى أعقابها ٠ معبد : يقصد به أخاه ٠
ورواية البيت فى العقد :

. . . .
بنى غالب أنا غضاب لمعبد

(١٠) الردى : الهالك ، من الردى وهو الهلاك ٠

(١١) خلى مكانه : مات ٠ الوقاف : الجبان الهياب المحجم عن القتال ٠
طائش اليد : أى كان مصيبا فى رميه وطعنه ولم تكن يده تطيش عند الرمى ٠

(١٢) البرم - بفتح الراء - الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ٠ وبكسر الراء : الضجر ٠ تناوحت الرياح : هبت صبا مرة ، وشمالا مرة ، وجنوبا مرة ٠٠ ومعناه : اشتد هبوبها ٠ رطب العضاه : كل شجر يعظم وله شوك ممتد ، الواحدة : عضاهة ٠ الضريع : نبت بالحجاز له شوك كبار ٠ المعضد : يقال : عضد الشجرة : اذا نثر ورقها لابله ، أو قطع فروعها بالمعضد ويكون كذلك - ضريعا - فى الصيف اذ ييبس لقلة الماء ٠

١٣ - كميـش الازار ، خـارج نصف سـاقه

صبـــور على العــزاء ، طـــلاع أنجـد

١٤ - رئيـس حـــروب لا يـزال ربيئـــة

مشيحـا على محقـوقف الصلـب ملبـد

١٥ - صبـور على رزء المصـــائب حـافظ

مـن اليـوم أدبـار الأحـاديث فى غـد

---

(١٣) الكميش : المـاضى العـزم السريع فى اتخاذ قراراته ·· كميش الازار : فيـه اضـافة السرعة الى الازار على سبيل المجـاز · العــزاء : الشدة · طـلاع أنجد : الأنجد : جمـع نجد وهو ما ارتفـع من الأرض ، ويقصد هنـا أنه ماض فى أمـوره يذلل صعبها ويقتحمها بعـزم واصـرار ·

(١٤) الربيئـة : الطليعة ، وهو الذى ينظـر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون الا على جبـل أو مكان عـال · المشيح : الجـاد · المحقوقف : المعوج · الملبد : الفرس شد عليه لبد السرج ·

(١٥) هذا البيت ذكـره (ابن عبد ربه) فى العقد الفـريد ١٥٤/٣ تحت عنوان (كتمان البلاء اذا نزل) وروايته فيه هكذا :

قليــل التشـكى للمصـائب ذاكـرا

مـن اليـوم أعقـاب الأحـاديث فى غد

وروايته فى الحماسة والأغـانى :

قليــل التشـكى للمصيبـات حـافظ

· · · · · · · ·

وفى البيـان والتبيـين :

قليــل التشـكى للمصيبات ذاكــر

· · · · · · · ·

١٦ ـ صبا ما صبا حتى علا الشيب راسه

فلما علاه قال للباطل : ابعد

١٧ ـ وهون وجدى أننى لم أقل له

كذبت ولم أبخل بما ملكت يدى

١٨ ـ وكنت كأنى واثق بمصدر

يمشى باكناف الحبيب فمحتد

١٩ ـ غداة دعانى والرماح ينشنه

كوقع الصياصى فى النسيج الممدد

٢٠ ـ وكنت كذات البو ريعت فاقبلت

الى جذم من مسك سقب مجلد

ذكر الأصفهانى ـ بسنده ـ أن يونس كان يقول : أفضل بيت قالته العرب فى الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة . وذكر البيت . الأغانى ١٠/١٠ .

وقد رواه مرة أخرى هكذا :

صبور على وقع المصائب . .

. . . .

(١٦) صبا : من الصبوة وهى الفتوة واللهو .

(١٨) المصدر : السابق من الخيل . الأكناف : النواحى . الحبيب ومحتد : موضعان .

(١٩) ينشنه : يتناولنه . الصياصى : جمع صيصة وهى الشوكة التى يسوى بها الحائك السداة واللحمة .

(٢٠) البو : ولد الناقة يذبح ويحشى جلده تبنا لتعطف عليه أمه وترأمه فتدر اللبن ولا ينقطع . ريعت : فزعت . جذم : القطعة . المسك : الجلد . السقب : ولد الناقة . المجلد : المسلوخ .

٢١ - فطاعنت عنه الخيل حتى تبددت
وحتى علانى حالك اللون أسود

٢٢ - طعان امرئ آسى أخاه بنفسه
واعلم أن المرء غير مخلد

* * *

مناسبة القصيدة :

قال أبو عبيدة (١) :

غزا عبد الله بن الصمة - من بنى غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن - وكان لعبد الله ثلاثة أسماء وثلاث كنى ، فاسمه : عبد الله ، وخالد ، ومعبد ٠ وكنيته : أبو فرعان ، وأبو دفافة ، وأبو وفاء - وهو أخو دريد بن الصمة لأبيه وأمه - فأغار على غطفان ، فأصاب منهم ابلا عظيمة فاطردها ، فقال له أخوه دريد :

نشدتك الله ألا تنزل فان غطفان ليست بغافلة عن أموالها ، فأقسم لا يريم حتى يأخذ مرباعه (ربع الغنيمة) - كعادة الرؤساء فى الجاهلية - وينقع نقيعه فيأكل ويطعم ويقسم البقية بين أصحابه ٠

---

(٢١) حالك اللون : غبار المعركة ٠ ورواية البيت فى الأغانى :

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ أشقر اللون مزبد

(٢٢) رواية البيت فى الأغانى :

قتال امرئ واسى أخاه بنفسه
وأيقن ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

(١) راجع العقد الفريد ٦/٣٢،٣٣ (يوم اللوى) ، الأغانى ١٠/١١ ٠

فبينــا هم فى ذلك وقد سطعت الدواخن اذا بغبــار قد ارتفــع أشد من دخانهم ، وجاءوا من كل صوب وحدب ، وتلاحقوا بالمنعــرج من رميــلة اللوى ، فاقتتلوا ، فقتــل رجل من بنى قارب - وهو من بنى عبس - عبد الله بن الصمة ، فتنادوا :

قتــل أبو ذفافة ، فعطف دريد فذب عنــه فلم يغن شيئا ، وجرح دريد فسقط ، فكفوا عنــه وهم يرون أنه قتــل ، واستنقذوا المــال ونجا من هــرب .

الدراســـة

مطلــع القصيــدة :

بدأ دريد قصيدته بحديث عن (أم معبد) . قالوا : انها كانت زوجــا له ، ولمــا رأته شديد الجــزع على أخيه عاتبته على ذلك وصغرت شــأن أخيه وسبته ، فطلقها ، وقال هذا الشعر ..

فقالت له أم معبد : بئس والله ما أثنيت على يا أبا قــرة ، لقــد أطعمتك مادومى ، وبثثتك مكتومى ... الخ .

وقيــل : انها سبت أخاه فطلقها والحقهــا بأهلها ، وقال فى ذلك شعــرا(٢) .

والذى يبدو لأول وهلــة أن مطلع القصــيدة غزل (حديث عن أم معبد) ، وهو غير محمود عند النقاد فى مطلع قصيدة الرثاء .

وقد تفردت قصيدة (دريد) هذه بمطلعها الغزلى ..

يقول ابن رشيق - ناقلا عن ابن الكلبى - وكان علامة :

---

(٢) راجــع : الأغــانى ١٠/١١ .

(لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرث جـديد الحبـل مـن أم معبـد
بعاقبـــة وأخلفـــت كـل موعـــد

ويعلق ابن رشيق على ذلك فيقول :

(وأنا أقول : إنه الواجب فى الجاهلية والإسلام وإلى وقتنا هذا، ومن بعده ، لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة ، وإنما تغزل (دريد) بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته) ٠

ويعلق أحد نقادنا المحدثين على كلام ابن رشيق قائلا (٣) :

علق ابن رشيق على بدء قصيدة (دريد) بالغزل ، وعلل ذلك بأن الشاعر قد أدرك ثأر أخيه الذى مضى على قتله سنة ، ومعنى ذلك أن المصيبة قد خفت حدتها ، وربما كان الشاعر مبتهجا بأخذ الثأر لأخيه، مما سمح له بهذا الغزل ، وان كان ابن رشيق لا يستحسن البدء بالغزل فى الرثاء ٠

وقالـوا :

(لنا أن نعد من براعة الاستهلال هذا الغزل الذى يقع فى مفتتح القصائد إذا كان الجو المخيم عليه هو الجو نفسه المخيم على القصـيدة الأصلية ٠

والواقع أن الشاعر الذى يسيطر عليه غرض خاص ، يخيم عليه جو يناسب هذا الغرض ، وحينئذ يكون الغزل الذى فى مفتتح القصيدة مسيطرا عليه هذا الجو ، فيكون الغزل فرحا إن كانت القصيدة فرحة،

---

(٣) أسس النقد الأدبى ، د/ أحمد بدوى ص ٣٠٧ ٠

وحزينا إن كانت حزينة ، ومفتخرا إن كانت فخرا ، ومعاتبة إن كانت عتابا ، ومخاصما إذا كانت القصيدة خصاما) (٤) ٠

ونحن لا نوافق ابن رشيق فيما نقله وأقره وعلق عليه ٠

إن النظرة السريعة الخاطفة تنبىء عن غزل فى بدء القصيدة لمجرد ذكر اسم امرأة هى (أم معبد) ٠

ولكن نظرة فاحصة متأملة تكشف عن تلاؤم وتناسب بين هذا المطلع وسائر أبيات القصيدة ٠

لننظر فى البيتين معا وما فيهما من ألفاظ ، وما تحمله الألفاظ من معان قريبة وإشارات بعيدة ، وبين هذه وتلك وشائج وصلات ٠

لقد بدأ الشاعر بيته الأول بقوله : (أرث) أى صار رثا خلقا باليا ٠٠ وهذا الرث البالى تأسى له النفس وتحزن ٠

وبدء الشاعر قصيدته بهذه الكلمة ينبىء عن نفس مكلومة حزينة ٠٠ ثم ما الذى أرث ؟ إنه جديد الحبل ٠٠ أى العهد الجديد ٠

ولكن :

كيف يصير الجديد رثا ؟ لابد أنه بفعل فاعل ، امتدت إليه يد الفساد عابثة به فأبلته وجعلته رثا ٠٠

ولماذا الحبل ؟

لأنه سبب القوة بين شيئين ، وسمي العهد حبلا لأنه رباط بين المتعاهدين ٠٠ ولكن الحبل صار قديما بحيث لا يعتمد عليه ٠

والعهد من أم معبد جديده كقديمه ، لأنها اعتادت خلف الوعد ، فلا فرق بين قديم وجديد ، لقد أخلفت (كل موعد) ٠٠

ومن من الناس يحب هذا الخلف ؟؟

---

(٤) نفسه ٠

وإننى لأرى فى البيت إشارة إلى مقتل أخيه (عبد الله) الذى اختطفته المنية اختطافا ، و (عبد الله) فى نظر أخيه (جديد) أى لم يهرم ، وإنما هو قائد حروب (جديد) صار (رثا) فأصبح فى عداد الأموات ..

أرأيت كيف صار الجديد رثا ؟؟ . سواء أكان ذلك فى حبل (أم معبد) أم فى قتل أخيه (عبد الله) !!

وفيه خلف من (أم معبد) وهناك مخالفة من قبيلة الشاعر له حينما نصحهم فلم يسمعوا له ولم يعيروه اهتماما .

وفى البيت الثانى :

حدث (بين) أى فراق . وحدثتنا الرواية أن الشاعر قد طلق امرأته لأنها لامته على حزنه وصغرت شأن أخيه ..

والفراق هنا : من زوجة بطلاقها ، ومن أخيه بقتله ، وكلاهما كان مخالفا ، فكأن الخلف والمخالفة أحدثا فراقا ..

ونجد فى البيت يأسا وانقطاع رجاء ، وفقد أمل .. فكيف نسمى مثل هذا غزلا ؟

إن المطلع ليدل على موضوع القصيدة وينبىء عن عاطفة الشاعر.. ودريد فى ذلك خارج عن المألوف بين الشعراء ، وقد سجل بذلك سبقا ومهارة وبراعة . وتدل المقدمة على حزن الشاعر الشديد وليس كما ذهب ابن رشيق .

إضـــافة :

وبعد أن سجلت ما سبق تذكرت كتابا حول مطلع القصيدة العربية وتوقعت أن يكون متناولا هذا المطلع .. ورجعت إليه فوجدت كلاما

طيبا ، يقول المؤلف(٥) :

ومما يتردد في نقد القدماء أنهم يعيبون مطالع معينة ... أحيانا لعدم ملاءمة المطلع للمناسبة كما في مطلع قصيدة (دريد بن الصمة) في رثاء أخيه عبد الله ، حيث جعل مطلعها غزلا ، والمألوف ألا يكون مطلع الرثاء غـزلا ...

ودون حاجة إلى بسطة في التوضيح نجد أن نقدهـم هذا غـير صحيح ، لأنهم يعدون مثل هذا المطلع غزلا لمجرد أنه حديث مع المرأة أو عنها مع صرف النظر عن نوعية هذا الحديث .

. . . .

وهذا المطلع لا يربطه بالغزل سبب قريب أو بعيـد ، فليس في معناه مما يكون بين المحبين من رضا ، أو من عتاب ، أو من خصـام شيء ، وإنما هو تعبير عن نفسية الشاعر في هذا الموقف ، فنفسية الشاعر يخيم عليها حينئذ ـ ولا شك ـ إحساس بأن فقد الأخ سيحدث تغـيرا سيئا في حياته ، وما أشبه هذا التغيير بحال حبل كان جديدا قويا متينا يعتمد عليه الشاعر في كل شأن يحتاج إلى حبل ، وما أكثر حاجة البدوي إلى الحبل في شئون حياته ومعيشته ، فضلا عما يرمز به الحبل إلى الصلة والنسب ، ولكن الشاعر يفاجأ بأن هذا الحبل أصبح رثا قديمـا واهيا لا يستطيع أن يعتمد عليه ، وإذا هو يشعر بأن رثاثة هذا الحبل ووهنه افقدته شيئا لا غنى عنه ، وعطلت في حياته ومعيشـته أمـورا لا تصلح ولا تستقيم بدون هذا الحبل ، وقد كانت جدة هذا الحبل وقوته ومتانته هي : أخوه الفقيد ، وعبر عن ذلك بقوله :

---

(٥) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، د/ عبد الحليم حفـني ص ١٥٠ .

ارث جـديد الحبـل مـن أم معبـد
بعاقبـــــة . . . .

ومن جانب آخر لابد أن الشاعر كان يخيم على نفسه حينئذ شعور عاطفى سىء ، يتمثل فى حرمانه من أوثق صلة اجتماعية ، وهى صـلة الأخ بأخيه ، فقد انعدمت هذه الصلة إلى الأبد ، لأن أخاه قد مـات ، وقد عبر عن ذلك بألم كان على صلة بأم معبد ، وكانت بينهما مواعيد، وإذا هو يفاجأ بأنها قطعت كل صـلة به ، وأخلفت كل موعـد معه ، فيقـول :

. . . .

. . . . . . وأخلفـت كـل موعــد

على الاطلاق ، كما انقطعت كل صلة بأخيه فجأة بموته(٦) ..

فهذا المطلع إذا تعبير رمزى واضح الدلالة على نفسية الشاعر بكل ما فيها من مشاعر ، وقد حشد الشاعر فى هذا البيت الأول كل ما يجول فى نفسه من أحاسيس سواء من ناحية حياته الاجتماعية وما يحدثـه فقد أخيه فيها من وهن أو تغيير ، أو من ناحية حياته العاطفية ، ومـا يصيبه فيها فقد أخيه من اضطراب كامل(٧) .

***

ونمضى مع أبيات القصيدة فنجد الشاعر يخاطب مطلقته (أعاذل) فيصحح لها فهمها ، ويرد عليها لومها ، فالكارثة الحقيقية فى فقد أمثال (خالد) ـ أخيه ، أو عمه ـ أما ما يهلك من مال ومتاع وغير ذلك فلا مصيبة فيه .

---

(٦) نفسه ص ١٥١ .

(٧) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ص ١٥١ (بتصرف يسير).

وينتقل (دريد) إلى الحديث عن سبب مقتل أخيه فيذكر - فى حسرة وألم - ما كان منه لقومه حين نصحهم ألا يغـيروا على غطفان وحلفائها من عبس وفزارة وأشجع ..

ويحرص الشاعر على أن يذكر المنصوحين بأسمائهم (عراض) و (أصحاب عارض) و (رهط بنى السوداء) ، وكان الجميع حاضرين، لم يتخلف أحد ، وكانت النصيحة (علانية) فلا عذر لهم ..

لقد حذرهم من كثرة عدوهم ، وشدة بأسهم ، وقوة شكيمتهم ، واستعدادهم وتهيئهم للقتال ، لقد أعدوا ألفى فارس مدجج بالسلاح ، ويقود هؤلاء قادة يلبسون الدروع السابغات محكمة النسج .

وكما حرص على ذكر أسماء المنصوحين حرص على ذكر الموضع الذى شهد النصيحة إنه (منعرج اللوى) .. وفى ذلك إبانة عما يعانيه الشاعر من الحسرة والأسى لعدم سماعهم نصحه .

ولقد عرفوا قيمة النصيحة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فقد قتـل من قتل من جشم وكان من جملة القتلى أخوه (عبد الله) .

وهذا البيت يتمثل به فى المواقف التى تشبه هذا الموقف .

ولا يزال الشاعر متحسرا متألما لما كان من قومه له ، ويتضح ذلك فى قوله (فلما عصونى) إنهم لم يأبهوا له ، ولم يعيروه اهتماما ، وعصوه ومع ذلك كان (منهم) لم يتخل عنهم ، بل كان واحدا منهم، لم يقابل عصيانهم بتخاذل أو تثاقل .. كيف وهو واحد منهم ؟؟ بـل إنه يطيع أمرهم ويشاركهم ويوافقهم على رأيهم حتى لا يكون بينهـم خلاف مع علمه بأن رأيه هو الأصوب .

وهذا البيت السابع جعله أبو هلال العسكرى فى ديوان المعـانى أبلغ ما قيل فى مساعدة الرجل أخاه وأجوده .

ويؤكد الشاعر أنه مع قومه وتابع لهـم فى غوايتهم ورشـدهم - ويلاحظ أنه ذكر (من) فى هذا البيت والذى قبله - إذ قال (منهم) وهنا قال (من غزية) أى جزء منها ، عضو من اعضائها ، فرع مـن شجرتها ، وهذا يكشف عن تعصبه الشديد لقومه ، فهو معهم فى كل حـال ..

ثم يتوجه الشاعر إلى قاتلى أخيه بالخطاب قائلا لهم سوف تعلمون يابنى قارب - أو بنى غالب - أنا غضاب لقتل (معبد) أى عبـد الله وذلك حينما نثأر له يوما ما .

ويتذكر مقتل أخيه حينما دارت رحى الحرب ، واشتعل أوارها، واشتد لهيبها ، حينئذ صرخ المنادى ينادى : لقـد قتل فارس مغـوار فيتساءل دريد - من الفارس القتيل ؟ أعبد الله ذلكم القتيل ؟؟

قال التبريزى : وإنما دعاه إلى هذا القول أمران : أحدهما سوء ظن الشقيق ، والثانى أنه علم إقدامه فى الحروب .

نعم إنه هو .. إنه ذلكم الفارس الشجاع ، والبطل المقدام ، الذى لم يكن هيابا ولا جبانا يحجم عن القتال ، ولم يكن طائش اليد ، وإنما كان مصيبا فى رميه وطعنه وكان خبيرا مجربا ، عالما بفنون الحرب .

وكان (عبد الله) ذا عزيمة قوية ، يواجة الصعاب ويقتحم الشدائد فى صلابة ، وشجاعة . إنه الكريم ذو الأيادى الطوال الذى لم يغضب أو يضق ذرعا عند حلول الكوارث وإنما كان يواسى المنكوبين وهـذا ما يفيده قوله :

ولا برمـــا إذا الريـــاح تناوحـــت

بعضـب العضـــاه والضريع المعضـد

بكسر الراء في (برما) .. وأما بالفتح فمعناه : أنه يهتم بأمـر

قبيلته ، يفرح لفرحهم ويترح لترحهم ، ولا يتركهم فى مصيبتهم ويلعب مع اللاعبين ..

لقد كان رئيسا للقوم فى حروبهم ، وكان حريصا عليهم ينظـر لهم أعداءهم لئلا يداهموهم ، وكان يمتطى فرسا توافرت فيه كل مقومـات الجودة والسرعة .

فهو (محقوقف الصلب) أى طويل مع اعوجاج وهذا من علامات جودته ، بالاضافة إلى طول شعره .

ويعود إلى الحديث عن (عبد الله) فيذكر من صفاته : الصبر على المصائب ، أما قوله : (حافظ من اليوم أدبار الأحاديث فى غد) قال التبريزى : أى يحفظ من يومه ما يتعقب أفعاله من أحاديث الناس فى غده .

وكان عبد الله فى صغره يلهو ويلعب فلما اكتهل وظهـر فى رأسـه الشيب لحى الباطل عن نفسه .

وإن مما يخفف الألم عن نفس (دريد) أنه لم يحدث بينه وبـين أخيه جفاء وإنما كان دريد يقف إلى جانبه دائما فى الملمات ، وكان يبذل ماله وكل ما ملكت يداه ، لم يبخل عليه بشىء .

بـلاء دريـد فى المعـركة :

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن المعركة التى قتل فيها أخـوه عبد الله :

ففى ذلك اليوم استدعى (عبد الله) أخاه (دريـد) ، وكانت الرماح تتناوله من كل جانب ولها خشخشة ووقع كوقع صياصى الحاكة فى ثوب ينسج .

ويكشف لنا (دريد) عن شعوره واحاسيسه حينما رأى أخاه فى هذا الموقف العصيب فيقول :

وكنت كـذات البـو ريعـت فاقبلـت

إلى جـذم مـن مسـك سـقب مقـدد

كان كالناقة التى أخذ منها وليدها فذبح أو مات ، وجاءوا بجلده فحشوه قشا ، وهم يقربونه إلى الناقة لكى تدر اللبن .. لكنها تصـدم بجلد لا حياة فيه ..

حينئذ أخذ (دريد) يدفع عنه الأعداء ويطعنهم واحدا بعد الآخر حتى تفرقوا عنه خوفا ورعبا ، وكان الغبار آنذاك كثيفا أسود اللـون حالـكا .

وقد كان قتال (دريد) الأعداء فيه استقتال لنصرة أخيه وهو غير وجل أو هياب ، وكيف يهاب الموت وهو موقن أن المرء غير مخلد فى هذه الدنيا ؟؟

* * *

الدراسـة الفنيـة للقصـيدة

بنـاء القصـيدة :

القصيدة كلها قائمة على (الرثاء) فهو الغرض الأساسى ، وقد بينا أن مطلع القصيدة ليس غزلا كما توهم بعض النقاد ، وإنما أبان المطلع عن عاطفة الشاعر منذ أول لفظ فيها ..

وذكر الشاعر مقدمات مقتل أخيه :

حيث ذكر نصحه لقومه وتحذيره إياهم من قبيلة غطفان ، لكنهم لم يتنبهوا إلا بعد فوات الأوان ..

ثم انتقل إلى الحديث عن موقفه حينما خالفوا أمره فأبـان عـن (جنديته) بمعنى السمع والطاعة ولو كان الأمر خطأ .

وكيف لا يطيع وهو من (غزية) ولابد أن يكون معها فى غوايتها ورشدها .. وهذا الموقف وقفه معظم الجاهليين إلا من تمرد على هذه التقاليد كالشعراء الصعاليك وطرفة بن العبد وغيرهم .

ثم يتوجه بالتهديد إلى قاتلى أخيه ويؤكد أنه لابد أن يثأر له . ويتذكر مقتله ، ويأسى لفراقه ، ويصفه بالأوصاف المذكورة . ويصف المعركة التى قتل فيها وشعوره إذ يناديه (عبد الله) ..

وفى بعض المصادر جاء ترتيب الأبيات مخالفا هذا الترتيب ولكل وجهة نظر ..

***

التصوير :

القصيدة ليست زاخرة بالألوان البيانية ، وما جاء فيها من هذه الألوان كان عن طبع وليس تكلفا ، فدريد ليس من شعراء التنقيح والصقل والتهذيب ..

والصور البيانية فى القصيدة تعتمد على التشبيه والاستعارة والكناية - فمن التشبيه قوله :

. . . . والرماح ينشنه

كوقع الصياصى فى النسيج الممدد

وقوله :

وكنت كذات البو ريعت فاقبلت

إلى جذم من مسك سقب مجلد

- ومن الاستعارة قوله :

أرث جديد الحبل من أم معبد

. . . .

وقـــوله :

. . . . وقـد أرى

غوايتهـــــم . . . .

وقـــوله :

. . . .

. . . . قـال للبـاطل : ابعـد

وقـــوله :

وان تعقب الأيـام والدهـر . . . .

. . . .

ـ ومن الكناية قوله :

. . . .

فلـم يستبينوا النصح إلا ضـحى الغد

وهو كناية عن إدراكهم صواب (دريد) بعد فوات الأوان .

وقـــوله :

فلمـا عصـــونى كنــت منهـم . . .

. . . .

فهو كناية عن حرصه على الوحدة وعدم انشقاق الصف القبلى .

وقـــوله :

والرمـــــاح ينشــــنه . . . . . .

. . . .

كناية عن كثرة الرماة من الأعداء حوله وكثرة ضرباتهم المســددة إليــه ..

وقـــوله :

. . . . . خـــارج نصـــف ســـاقه

. . . .

كناية عن الاستعداد للمهمات الصعبة ٠٠

موازنـــــة :

هذه الصورة التى ذكرناها والتى يبين (دريد) من خلالها مدى حزنه وشدة وجده حينما رأى ما بأخيه إذ يقول :

وكنت كـذات البـو ريعـت فاقبلـت

إلى جـذم مـن مسـك سـقب مجلـد

نجد هذه الصورة شائعة لدى شعراء الجاهلية والمخضرمين ٠

فمن ذلك قول (الخنساء)(٨) :

ومـا عجـول عـلى بـو تطيف بــه

لهـا حنينـان : إعـلان وإســرار

ترتـع ما رتعـت حـتى إذا اذكـرت

فإنمـا هى إقبـال وإدبـار

لا تسمن الدهـر فى أرض وإن رتعت

فإنمـا هى تحنـان وتسـجار

يومـا بأوجـد مـنى يـوم فارقـنى

صـخر ، وللدهـر إحـلاء وإمـرار

وقول (متمم بن نويرة) يرثى أخاه (مالكا) الذى قتله ضرار ابن الأزور الأسدى(٩) :

---

(٨) ديوانها ط الثقافية ص ٤٤ ٠ عجول : ناقة متلهفة لرؤية ولدها ٠ البو : جلد ولد الناقة حين ينزع فيؤتى بجلده ويحشونه قشا حتى تتلهى به أمه ٠ الحنين : صوت الناقة ٠

(٩) شرح المفضليات للتبريزى ٩٦٦/٢ – ٩٦٧ ، تحقيق على البجاوى ط نهضة مصر ٠ أظآر : جمع ظئر وهى نوق يعطفن على حوار واحد فيرضع من اثنين ويتخلى أهل البيت بواحدة ٠ روائم : جمع رائم وهى المحبات اللائى يعطفن على الرضيع ٠ حوار : ولد الناقة ٠

فمـا وجـد أظـآر ثـلاث روائـــم

رأين مجـرا مــن حـــوار ومصـرعا

يذكـــرن ذا البـث الحـزين ببثـــه

إذا حنـت الأولى ســجعن لهـا معا

إذا شـارف منهـن قامـت فرجعـت

حنينـا فابكى شـجوها البرك أجمعا

باوجـد مـنى يـوم قـام بمالـــك

منـاد بصـير بالفـراق فاســمعا (١٠)

وقول عمرو بن معد يكرب (١١):

لعمـــرك مـــا ثـلاث حائمـــات

عـلى ربـع يرعـن ومـا يريـــع

---

(١٠) الشجو : الحزن . البرك : الألف من الإبل أو هى إبل الحى . الشارف : المسنة . قال الأصمعى : إنما خص الشارف لأنها أرق من الفتية ، لبعد الشارف من الولد .

(١١) الأصمعيات ق ٦١/١٧٦ تحقيق شاكر وهارون ، ط دار المعارف سنة ١٩٦٤ .

ثلاث : يريد من النوق . حائمات : طائفات . الربع : الفصيل الذى ينتج فى الربيع وهو أول النتاج . يرعن وما يريع : يرجعن وما يرجع لهلاكه . الناب : الناقة المسنة . المثكال : التى فقدت وليدها . السديس من الإبل : ما دخل فى الثامنة من عمره . نضجته : جاوزت به سنه فى حملها له . تستليع : من اللوعة وهى حرقة القلب . الأنس : الحى المقيمون . الجميع : المجتمعون .

ونـاب مـا يعيـش لهـا حـوار
شـديد الطعـن مشـكال جـزوع
سـديس نفـجته بعـد حمـل
تحـرى فى الحنـين وتسـتليع
باوجـع لوعـة مـنى ووجـدا
غـداة تحمـل الانـس الجميـع

وبالنظر فى هذه الأشعار نلاحظ :

١ - أن سبب حزن الشعراء هو فقد عـزيز (اخ) .. ما عـدا (عمرا) فإن حزنه لفراق محبوبته ورحيلها .

٢ - عدد النوق التى ووزن بينها وبين حزن الشاعر : ثلاث عـند كل من متمم وعمرو ، وواحدة لدى كل من الخنساء ودريد .

٣ - الصياغة متشابهة لدى الخنساء ومتمم وعمرو ، فكل منهـم نفى أن تكون النياق أشد حزنا منه ، فسلكوا جميعـا مسـلكا واحـدا (ما عجول - ما وجد اظآر - ما ثلاث) (باوجد منى - باوجد منى - باوجع لوعة) .

٤ - أما دريد فلم يستخدم أسلوب النفى والتفضيل ، لأن حزنـه لم يكن أشد من تلك الناقة وإنما كان مثلها (وكنت كذات البو) .

٥ - وتاسيسا على ذلك :

فإن أكثر هؤلاء الشعراء إجادة الخنساء ، وذلك :

(أ) لأنها استطاعت ان تشعرنا بمبلغ حزنها وشدته حين ركزت على ناقة واحدة هى الأم ، بخلاف متمم وعمرو ، فكلاهما نظر إلى نوق ثلاث ، الأم الثكلى ، وأخريان تواسيانها وتشاركانها حزنها ، وتحففان

منه ، ولا شك أن حزن الأم لا يساويه حـزن آخـر ، وحتى لو كانت الناقتان تبكيان فقيدا لهما منذ زمن فلن يكونا مثل هذه الثكلى الجديدة.

فالخنساء عبرت عن حزنها وحدها الذى لا يساويه حزن حتى ولو كانت تلك العجول الثكلى ...

(ب) فى شعر الخنساء وصورتها زيادة لم يتطرق إليها عمـرو ومتمم ، وذلك أنها نظرت إلى نفسية تلك الناقة المتحيرة ، التى لـم تصدق أن ابنها مات أو ذبح ، ولذلك فهى تعاود الذهاب إلى البو فتصدم - مرة تلو أخرى - عائدة بخيبـة أملهـا . وهى فى كل ذلك متعجلة مسرعة ، ذهابا وإيابا ، وكأنها تبحث عن فقيدها فى كل مكان .

(جـ) فى صورة الخنساء زيادة أخرى ، وهى أنهـا ذكرت أن الناقة وإن ظلت ترتع الدهر فلن تسمن لأنها حزينة .

(د) الجودة الموسيقية فى أبيات الخنساء واضحة ، ممثلة فى الازدواجية والمطابقة على مدى الأبيات الأربعة (لها حنينان : إعـلان وإسرار) ، (فإنما هى اقبال وإدبار) ، (فإنما هى تحنان وتسجار) ، (وللدهر إحلاء وإمرار) .

(هـ) بيان شدة حزن الناقة وذلك إذ جعلتها (لكثرة ما تقبـل وتدبر ، ولغلبة ذاك عليها ، واتصـاله منها ، وأنـه لم يكـن لها حال غيرهما ، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار) (١٢) .

٦ - يذكر لدريد فضل السبق . وللخنساء فضل الإجادة وفضل سبق بالنسبة إلى متمم فهى تسبقه بشعرها . أما عمرو فلست أعرف هل هـو

---

(١٢) دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجانى ص ٣٠٠ - ٣٠١ تحقيق: محمود شاكر ، ط الخانجى .

سابق عليهما أم لاحق لهما ؟

***

الألفـاظ والأسـاليب :

استخدم الشاعر ألفاظا تناسب موضوع القصيدة ، وقد رأينا منذ أول كلمة فيها كيف كانت الإبانة الواضحة عن العاطفة المسيطرة عليه ٠

وأما عن الأساليب فمعظمها خبرية ، لأن الشاعر فى مجال الحكاية والوصف ، وفى مثل هذا المجال يكون الأسلوب الخبرى هو العمدة ٠

وقد جاءت بعض الأساليب الإنشائية كالاستفهام فى قوله :

. . . .

أعبـد اللـــه ذلـكم الـــردى ؟

وهو استفهام ينم عن الدهشة لموت أخيه ، وهو استفهام فيه انفعال وتوتر ٠٠

ومنـه قـوله :

وهل أنـا إلا مـن غزيـة إن غـوت

غويـت ، وإن ترشـد غزيـة أرشـد

وهو تقريرى ، ورو البيت على هذا الاستفهام أفضل من الرواية الأخرى وهى :

ومـا أنـا إلا مـن غزيـة ٠٠٠٠٠

. . . .

وقد جاءت بعض المحسنات البديعية نادرة فى القصيدة كقوله :

أعاذل ، إن الرزء فى مثـل خالــد

ولا زرء فيمـا أهـلك المـرء عن يـد

ففيه طباق بالإيجاب والسلب ٠

والقصيدة فى مجموعها ألفاظها جزلة قوية ، والأساليب بعيدة عن الالتواء والتعقيد ٠

وفى قـوله :

صـبا مـا صـبا ٠٠٠٠٠ البيت

إبهام ٠ وهذا النوع من البلاغة لا يعمد إلى استعماله إلا لضـرب من المبالغة ، فإذا جيء به فى كلام فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر مبهـم وإعظامه ، لأنه هو الذى يطرق السمع أولا ، فيذهب بالسامع كل مذهب، فقول الشاعر : (صبا ما صبا) من الابهام الذى لو قدرت ما قدرت فى تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الابهام(١٣) ٠

***

العاطفـــة :

بعد هذه الجولة مع قصيدة (دريد بن الصمة) تبين لنا أن عاطفة الشاعر تفيض حزنا وأسى ، وقد بينا خطأ ما نقله ابن رشـيق من أن (دريدا) قال قصيدته هذه بعد قتل أخيه بعام ٠

فالقصيدة وراءها عاطفة نفس مكلومة ، لا تزال تمتلىء بالأسى٠٠ وكيف لا يأسى لفراق أخيه الفارس الزعيم ؟؟

وقد رأينا الشاعر وهو فى معرض الحديث عن نصحه لقومه كيف كان متألما للعواقب التى نتجت عن عدم اهتمامهم به ٠٠ فوجدناه يذكر المنصوحين بأسمائهم ، وذكر زمن النصيحة ، ومكانها ، وما ذلك كله إلا لشدة أسفه على ما آل إليه أمر القبيلة ٠

---

(١٣) المثل السائر ٢/٢٣٤ ٠

والشاعر لم يذهب فى الثناء على أخيه مذهب سائر شعراء الجاهلية وإنما اكتفى بوصفه بالشجاعة والإقدام ، والكرم وسداد الرأى . ولم يكن فى ذلك مبالغا ، بل هو صادق فيما قال ..

***

الموسـيقى :

القصيدة من بحر الطويل ، وهذا البحر ، جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربى القديم عليه ، وليس بحر من بحور الشعر العربى يضارع البحر الطويل فى نسبة شيوعه (١٤) .

وقد وصفوا بحر الطويل بأنه (يتسع لكثير من المعانى ، فيصلح للفخر والحماسة والرثاء ، والوصـف والتاريخ ، والشـكوى والألم ، والنظرات الكونية) (١٥) .

وهذا البحر (أخذ من حلاوة الوافر دون انتباره ، ومن رقة الرمل فهو البحر المعتدل حقا) (١٦) .

ويعد بحر الطويل - مع بحر البسيط - بحرى الجزالة والفخامة، فيغلب على المنظوم منهما الرصانة، والمتانة وشدة الأسر، وروعة السرد، وصلابة الحوك ، ولذلك يحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة ، وثروة من الأخيلة والمعانى واسعة ، لا تتفق لكل شاعر (١٧) .

---

(١٤) موسيقى الشعر ، د/ ابراهيم انيس ص ١٩١ .

(١٥) الشعراء وانشاد الشعر ، د/ على الجنـدى ص ١٠٢ ، ط دار المعـارف .

دون لينه المفرط ، ومن ترسل المتقارب المحض دون خفتـه وضيقه ، وسلم من جلبة الكامل ، وكزازة الرجز ، وأفاده الطول أبهة وجلالة ،

(١٦) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، د/ عبد الله الطيب جـ ١ ص ٣٦٢

(١٧) الشعراء وانشاء الشعر ص ١٠٢ .

وهذه الموضوعات التى تتفق وبحر الطويل تضمنت القصيدة كثيرا منها ولذلك ناسبها هذا البحر .

وقال بعض النقاد : إن في أحد أبيات القصيدة (إقواء)(١٨) وهو قوله :

فطاعنت عنـه الخيـل حتى تبـددت
وحـتى عـلانى حـالك اللـون أسود

فالدال مضـمومة ، وهى في بقيـة القصيدة مكسـورة ، وهـذا ما يسميه العروضيون (إقواء) ..

والبيت مروى فى الحماسة هكذا :

. . . .
وحـتى عـلانى حالك اللـون أسودى

قـال التبريزى :

ويروى (أسود) على الإقواء ، و (أسودى) يريد : أسوديا كما قيل فى الأحمر : أحمرى ، وفى الدوار : دوارى ، ثم خففت ياء النسب بحذف احداهما ..وعليه فـلا إقواء ...

ولو صح أن هناك إقواء فى الشعر القديم فإننى أتفق مـع الرأى القائل - (أنه يجب أن تعد خطـأ نحـويا لا خطأ شعريا ، فالشـاعر صاحب الأذن الموسيقية والحريص على موسيقى القافية لا يعقل أن يزل فى مثل هذا الخطأ الواضـح الذى يدركـه حـتى المبتدئون فى قـول

---

(١٨) الإقواء : هو اختلاف المجرى وهو حركة الروى المطلق بحركـة تقاربها في الثقل كالضمة والكسرة .

الشعر ٠٠٠)(١٩) ٠

وقد بدأ الشاعر قصيدته - على عادة الشعراء - بما يسمى (التصريع) وهو : ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته ٠٠ فقد قال :

ارث جديد الحبل من أم معبد

بعاقبة وأخلفت كل موعد

والتصريع فى بداية القصيدة بمثابة (مقدمة موسيقية خفيفة قصيرة ، تلهب إحساسنا وتهيئنا لاستماع القصيدة ، وتدلنا على القافية التى اختارها الشاعر)(٢٠) ٠

***

(١٩) موسيقى الشعر ٣٦١ ، ٣٦٢ ٠

(٢٠) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ٧٦ ، والشعراء وانشاد الشعر ٠

شــاعر متمــرد
(طرفة بن العبد)
ومعلقتــه

اســمه ونســبه(١) :

هو : عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة ٠٠ من بكر بن وائل ٠٠ و (طرفة) لقب له ، لقبوه به لقوله(٢) :

لا تعجــلا بالبــكاء اليــوم مطــرفا

ولا أميريكمــا بالـــدار إذ وقفـــــا

وكنى بأبى عمرو ٠٠ وأمه : وردة أخت جرير بن عبد المسيح المعــروف بالمتلمس ٠

★ مولــده ونشــأته :

اختلفوا فى العام الذى ولد فيه ، فقيل : ولد ٥٣٠ م وقيل ٥٣٨م، وقيل ٥٤٠ م ، وقيل ٥٤٥ م ٠

وجاء هذا الاختلاف تأسيسا على اختلافهم فى العام الذى قتــل فيه ٠ ولو عرف عام مقتله على وجه التحديد لكان من اليسير تحديد عام مولــده ٠

---

(١) راجع ترجمته وأخباره فى : الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٥/١، وما بعدها ، خزانة الأدب ٤١٢/١ ـ ٤١٧ ، طبقــات الشــعراء لابن سلام ، الأغانى ، فى ترجمة المتلمس ، الموشح للمرزبانى، جمهرة أشعار العرب ٤١ ـ ٤٥ ، شرح القصائد السبع الطوال ، ابن الأنبارى ، وغيرها ٠

(٢) لطائف المعارف للثعالبى ص ٢٧ ٠

وذلك أنه قتل ابن عشرين عاما ، ولذا كان يقال له (ابن العشرين).

وقيل : قتل ابن ست وعشرين .. قالت أخته الخَرنق تبكيه :

عـددنا لـه سـتا وعشـرين حجـة

فلما توفاهـا اسـتوى سـيدا ضـخما

فجعنـا بـه لمـا رجونـا إيابـه

على خير حـال ، ولا وليدا ولا قحمـا

وقد مات (العبد) أبو طرفة ، وكان طرفة آنذاك صغيرا ، وأبى أعمامه أن يسلموا أمواله إلى زوجته (وردة) ، أم طرفة فقال(٣) :

مـا تنظـرون بمـال وردة فيكـم

صـغر البنـون ورهـط وردة غيـب

قـد يبعـث الأمـر العظيـم صـغيره

حـتى تظـل لـه الدمـاء تصـبب

والظـلم فـرق بـين حـيى وائـل

بكـر تسـاقيها المنايـا تغلـب

والصـدق يألفـه الكـريم المرتجـى

والكـذب يألفـه الـدنى الأخيـب

أدوا الحقـوق تفـر لكـم أعراضـكم

إن الكـريم إذا يحـرب يغضـب

وهذه الأبيات تنم عن موهبة شعرية فذة فى سن مبكرة ، وتثبت سببا من أسباب تمرده على تقاليد القبيلة ..

---

(٣) الشعر والشعراء ١٨٧/١ ، يحرب : يحمل على الغضب ، وحربه: إذا سلبه ماله ، والتحريب : التحريش . تفر : تصان .

ويبدو أن أخاه (معبدا) تكفل برعايته ، فأوكل اليه رعاية قطيع من الابل ، غير أن طرفة نشأ لاهيا لاعبا ، مسرفا على نفسه فى السكر والعبث ، فكان يتلف كل ما يكسبه ، وأهمل الابل حتى ضلت ، فتحامته العشيرة ، ونفر منه أولياؤه فقال فى ذلك(٤) :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى
وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى
الى ان تحامتنى العشيرة كلها
وافردت افراد البعير المعبد

ويقال : ان أخاه لامه حين ضيع الابل قائلا : أرأيت اذا ذهبت ابلنا أكنت تردها بشعرك ؟

قال : فانى لا أخرج أبدا حتى تعلم أن شعرى سيردها ان أخذت .

وذكروا أن ذلك كان السبب الذى حمل طرفة على قول معلقته ، غير أنك لا تجد لهذا السبب وجودا ظاهرا فى أبيات القصيدة .

شاعرية طرفة :

نشأ طرفة فى أسرة شاعرة فخاله : (المتلمس) الشاعر المعروف ، وأخته (الخرنق) ، وعمه : (المرقش الأصغر) وعم المرقش الأصغر (المرقش الأكبر) .

ولا غرو حين ينشأ طفل فى مثل هذا الجو الشعرى - فضلا عن موهبته - أن تظهر ملامح شاعريته مبكرة فى صباه ..

وقد بدت تلك الملامح فى أكثر من موقف :

---

(٤) المعلقة : البيتان ٥١ ، ٥٢ .

★ رووا ان اول شعر قاله طرفة حين (كان مع عمه فى سفر وهو صبى فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيخ له فنصبه للقنابر ، وبقى عامة يومه فلم يصد شيئا ، ثم حمل فخه ورجع الى عمه وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر ، يلقطن ما نثر لهن من الحب فقال :

يا لك من قنبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى
قد رحل الصياد عنك فابشرى

ورفع الفخ فماذا تحذرى
لابد من صيدك يوما فاصبرى(٥)

★ شعره الذى قاله مستنكرا فيه موقف أعمامه حين لووهم حقهم ٠

★ واشد تلك المواقف انباء عن شاعريته وموهبته الفذة ما تناقلته كتب الأدب والنقد عن أبى عبيدة قال :

مر (المسيب بن علس) ينشد شعرا فى وصف جمل ، ثم حوله الى نعت ناقة ، فقال طرفة : (قد استنوق الجمل) ٠

فقال (المسيب) : يا غلام ، اذهب الى أمك بمؤيدة ، أى داهية،

---

(٥) الشعر والشعراء ١٨٨/١ ، لسان العرب : قبر ، مجمع الأمثال ٤٢٣/١ ، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم والنص منه ، وقد جاء فى الشعر والشعراء (قنبة) بدلا من (قنبرة) - قال فى اللسان : القنبر : ضرب من الحمر ٠ والقبر والقبرة والقنبر والقنبرة والقنبراء : طائر يشبه الحمرة ٠ وذكر أبيات طرفة وقال (قبرة) ٠ اللسان ٠

فقال طـرفة : لو عاينت فعـل أمك خاليا نهاك : فقال المسيب : من أنت ؟

فقال : طرفة بن العبد • قال : ما أشبه الليلة بالبـارحة ! يريد : ما أشبه بعضكم فى الشر ببعض •

ويروى أن المنشد كان (المتلمس) ، أنشد فى مجلس لبنى قيس ابن ثعلبـة ، وكـان طـرفة يلعب مع الصبيـان ويتسمـع ، فأنشـد المتلمس(٦) :

وقـد أتنـاسى الهـم عنـد احتضـاره
بنـــاج عليـــه الصيعـرية مكـــدم
كميـت كنـــار اللحـــم أو حمـــيرية
مواشـــكة تنـفى الحصـــى بملثـــم
كـأن على أنســـائها عــذق خصبـــة
تـدلى مــن الـكافـــور غــير مكمــم

فلمــا سمع طـرفة البيت قال : (استنوق الجمـل) فدعاه المتلمس وقال له : أخـرج لسـانك ، فأخرجه فاذا هو أسود ، فقال : ويـل لهـذا من هـذا ••

---

(٦) راجع : مجمع الأمثـال ٤٧٨/٢، ٤٧٩ ، الأغانى ١٣٣/٢١ ، جمهرة أشعار العـرب ٤٠ ، ٤١ • الصيعرية : سمة من سمات النوق فى فى أعناقها • المكدم : الغليظ الصلب • الكميت : ما بين الحمـرة والسمرة • مواشـكة : سريعـة • ملثم : يقال لثم البعير الحجارة بخفه : كسرها • عذق خصبة : نخلة •

(استنوق الجمـل) بنصب الجمـل ـ أى جعله كالناقة ، وبرفعـه : صـار الجمل كالناقة فى ذلهـا ، والأول عن الأغانى ، والثانى عن ابن سيدة فى اللسـان •

وقد حدث ما تنبأ به الشاعر ـ كما سيأتى :

★ **مقتل طـرفة :**

كان الملك عمرو بن هند يعد أخاه قابوسا ليخلفه من بعده ، فقدم عليه المتلمس وطرفة ، فجعلهما فى صحابة قابوس وأمرهما بلزومه . وكان قابوس شابا يعجبه اللهو ، وكان يركب يوما فى الصيد ، فيركض ويتصيد ، وهما معه يركضان ، حتى يرجعا عشية وقد تعبا ، فيكون قابوس من الغد فى الشراب ، فيقفان بباب سرادقه الى العشى .

وكان قابوس يوما على الشراب ، فوقفا ببابه النهار كله ، ولم يصلا اليه فضجر طرفة ، وأنشد قصيدة فى هجائه يقول فيها(٧) :

فليت لنا مكان الملك عمرو
رغوثا حول قبتنا تخور
من الزمرات اسبل قادماها
وضرتها مركنة درور
يشاركنا لنا رخلان فيها
وتعلوها الكباش فما تنور

---

(٧) كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة . الرغوث : النعجة المرضع ، أو البقرة الحلوب ، والمراد هنا : النعجة بدليل قوله (الزمرات) أى قليلات الصوف . ومثل هذا النوع أغزر لبنا . القادمان : الخفان وهما للناقة لكنه استعارها للنعجة . أسبل : طال وكمل . الضرة : الضرع . المركنة : التى لها أركان أى جوانب وأصل . الرخل : الأنثى من أولاد الضان . تنور : تنفر .

لعمــــرك ان قــابوس بن هنـــــد
ليخلــط ملــكه نـــوك كثيـــــر (٨)

قسمـت الدهــــر فى زمـــن رخــى
كـذاك الحــكم يقصــد أو يجــور

لنــا يــوم وللــكر وان يـــــوم
تطــير البائســات ولا نطـــــير (٩)

فامــا يومهـــن فيــوم ســـوء
تطــاردهن بالحــدب الصقــور (١٠)

وامـا يومنـــا فنظـــل ركبــــا
وقـــوفا مــا نحـــل وما نســير

وقال ابن قتيبـة (١١) :

كان طــرفة ينــادم عمــرو بن هنــد ، فاشرفت ذات يوم أخته ، فرأى ظلها فى الجام الذى فى يده فقال :

الا يا بابــى البـــــى الـــذى يبـــرق شنفـــاه
ولــولا الملـــك القـــــاعــــد قــد الثمــنى فــاه

فحقد ذلك عليه .

ثم خـرج مع المتلمس وقدما على عمـرو بن هند ، وكان طـرفة غـلاما معجبا تائها يتخلج فى مشيته بين يديه ، فنظـر اليـه نظـرة

---

(٨) نــوك : حمــق .

(٩) الكروان : جمــع كروان .

(١٠) الحدب : ما ارتفع من الأرض وغلظ .

(١١) الشعر والشعراء ١/١٨٨، ١٨٩ ، والشنف : الذى يلبس فى أعلا الأذن ، والذى فى أسفلها القرط وقيل هما سواء .

كادت تقتلعـه من مجلسـه ، وكان عمـرو بن عند لا يبتسم ولا يضحك وكانت العـرب تهابه هيبة شديدة .

قال المتلمس :

قلت لطـرفة حين قمنا : يا طـرفة انى أخاف عليك من نظـرته اليك مع ما قلت لأخيـه . قال : كلا .

فكتب الى عـامله على عمـان والبحرين كتابين ، أحدهما مع طـرفة والآخـر معى .

وبينما هما فى الطـريق أعطى المتلمس كتـابه لغـلام من أهـل الحـيرة ، وفيـه :

أن يقوم عامل عمـرو بقطـع يدى ورجلى المتلمس ويدفنه حيا ، فالقى المتلمس الصحيفة فى النهر وقال(١٢) :

والقيتهـا بالثنى من جنـب كافـــر

كذلك اقنـــو كـل قـط مضلـــل

رضيـت لهـا بالمـــاء لمـا رايتهـــا

يجـــول بهـا التيـــار فى كل جـدول

يقـول المتلمس :

فقلت لطـرفة : معك والله مثلها . قال : كلا ، ما كان ليكتب لى بذلك . .

فلما وصل طرفة قام عامل عمرو بقطع يديه ورجليه ودفنه حيا . ففى ذلك يقول المتلمس :

---

(١٢) راجع : شرح القصـائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنبـارى ص ١١٥ وما بعدها ، وكذا مجمـع الأمثال للميدانى ٢/٢٢٤ ، وكافر : نهـر بالحيرة . اقنو : أحفظ وأجزى . القط : الصحيفة

من مبلغ الشعراء عن أخويهم
خبرا فتصدقهم بذاك الأنفس

أودى الذى علق الصحيفة منهما
ونجا حذار حبائه المتلمس

ألق الصحيفة لا أبا لك انه
يخشى عليك من الحباء النقرس

★ منزلته وآراء النقاد فيه :

قال ابن قتيبة(١٣) نقلا عن أبى عبيدة : «هو أجودهم واحدة ..»

وعده ابن سلام(١٤) رأس الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية وهم عنده أربعة : طرفة ، وعبيد ، وعلقمة ، وعدى بن زيد .. وقال فأما طرفة فأشعر الناس واحدة وهى قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد
وقفت بها ابكى وابكى الى الغد

وسئل لبيد عن أشعر الشعراء فقال(١٥) :

الملك الضليل ـ يعنى امرأ القيس ـ ثم الغلام القتيل ـ يعنى طرفة ـ ، ثم الشيخ أبو عقيل ـ يعنى نفسه ..

وكذلك عده البغدادى ثانى أشعر الشعراء بعد امرىء القيس(١٦) ونقل السيوطى : أن أبا عمرو بن العلاء قال(١٧) :

---

(١٣) الشعر والشعراء ١٩٠/١ .
(١٤) طبقات الشعراء ٤٩، ٥٠ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(١٥) جمهرة أشعار العرب : ٢٠ .
(١٦) الخزانة ١٨٢/٢ .
(١٧) شرح شواهد المغنى : ٢٧٢ .

« لم نجد أحدا من الشعراء تعجل فى حداثة السن الا طـرفة ، فانه قال الشعر حدثا ، وشهـر فى سنوات ، وقيـل وهو ابن بضـع وعشرين سنة ، ولذا لم يذكـر فى شعـره الشيب ، ولا بكى عليه .

وسئل حسـان : من أشعر النـاس ؟

فقال : قبيـلة أم قصيدة ؟ قيـل كلاهما . قال : أما أشعرهم قبيلة فهذيل ، وأما أشعرهم قصيدة فطـرفة .

وسئل جـرير : من أشعر النـاس ؟ فقال : الذى يقول :

ستبـدى لك الأيام مـا كنت جاهـلا

. . . .

موهبة فذة وعبقـرية شعـرية نادرة :

وفى رأيى أن طـرفة من أشعر الشعراء ـ ان لم يكن أشعرهم ـ بل هو موهبة فذة ، وعبقـرية نادرة ، فشعره الذى وصـل الينـا نتاجه وهو دون الخامسـة والعشرين وقد بلـغ من الجـودة والاتقان ما بلغ ، فكيف لو عاش مثـل غيره من الجاهليين !!

وحقـا ما قال صاحب الجمهرة عنه : « هو أشعرهم اذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم فى طوال أعمـارهم فخب وركض معهم .. »(١٨) .

فمثـل هذا الشاب هو أجدر الشعراء بلقب (النابغة) لا أولئك الذين عـرف النـاس شعرهم بعد أن جـاوزوا عصـر الشباب وبعد أن طال تمرسهم بهذا الفن ، وبعـد أن نضجت ملـكاتهم واتسعت دائرة تجـاربهم فى الفن والحيـاة(١٩) .

(١٨) الجمهـرة : ص ٤١ .

(١٩) معلقات العرب : بدوى طبانة : ١١٢ .

معلقـــة طـــرفة

وهى أطول المعلقات ، فعدد أبياتهـا مـائة وثمانية ، أو مـائة وخمسـة ، أو مـائة واثنـان ..

★ **سبب انشـــادها :**

قيـل : ان سبب انشـادها لوم أخيـه (معبد) اياه لاهمـاله الابل حتى ضاعت . غير أنك تقلب النظـر فى المعلقـة باحثـا عن هذا السبب فلا تظفـر بشىء ، اللهم الا عدة أبيات لا تكفى لاقنـاعنا بهذا السبب .. وهى قـوله :

فمـا لى أرانى وابن عمـى مـالـــكا
متـى أدن منـه ينـأ عـنى ويبعـــد
يـلوم ومـا أدرى عـلام يلومنـــى !
كمـا لامنـى فى الحى قـرط بن أعبـد
وأيـاسنى مـن كـل خـير طلبتـــه
كـأنا وضعنـــاه الى رمـس ملحـــد
على غـير ذنب قلتـــه ، غـير أننى
نشـدت فلم أغفـــل حمـــولة معبـد

ويقال : ان ابن عمـه مالـكا حجـز الابل عنده لأنها رعت فى كلئـه .

وليس بالضرورة أن يكون هناك سبب لكل معلقة ..

* * *

الوقوف على الأطلال ووصف رحلة الظعن وحديث عن المرأة :

يقـول طـرفة :

لخـــولة اطـــلال ببـرقـــة ثهمـد

تـلوح كبـاقى الوشـم فى ظاهـر اليد (١)

وقـــوفا بهـا صحبـى على مطيهـــم

يقـــولون لا تهلـك أسـى وتجـــلد (٢)

كـان حـــدوج المـــالكية غـــدوة

خـــلايا سفـــين بالنواصـف مـن دد (٣)

عدوليـــة او مـن سفـين ابن يامـن

يجـــور بهـا المـلاح طـــورا ويهتـدى (٤)

---

(١) خـولة : امـرأة من كلب · أطلال جمع طلل وهو ما شخص من آثار الديار · برقة : رابيـة فيهـا رمل وطين · ثهمد : موضع ·

(٢) صحب : جمـع صاحب · لا تهلك أسى : لا تقتل نفسك · تجلد : اصـبر ·

(٣) حدوج : جمع حدج وهو مركب المـرأة · المـالكية : من بنى مالك ضبيعة · خـلايا : جمـع خلية · قال الأصمعى : وهى السفـن العظام ، وقال أبو عبيدة : هى السفن العظـام ومعها قـوارب صغيرة · النواصف : جمـع ناصفة وهى مجارى المـاء الى البحر، دد : أرض معـروفة ·

(٤) عدولية : أى سفينة منسوبة الى (عدولى) وهى جـزيرة من جـزائر البحـر ، وقيـل : عدولية : قـوم كانوا ينزلون بهجر ليسوا من ربيعـة ولا من مضـر ولا من اليمن · ابن يامن : ملاح شهير · يجور بها الملاح : أى يميل بها ·

يشـــق حبـاب المـاء حـيز ومها بها

كمـا قسـم التـرب المفـــايل باليـد (٥)

تعليـــق :

وقف طـرفة ـ فى هذه الأبيات ـ على الأطـلال ، وهو فى ذلك ليس بدعا من الشعراء الجاهليين ٠ اذ تعارفوا على جعـل ذلك بدءا لقصـائدهم ٠

ومعظم النقـاد يذهبون الى أن ذلك قالب جامد ودائرة ضيقـة دار الشعراء فى اطارها مقلدين لا غير ٠

نعم ، لقد وقف الجاهليون على الأطلال لا يكاد يشذ واحد منهم عن ذلك ولكن ينبغى أن نتسـاءل : من كان يسكن هذه الديار ؟

انها المـرأة التى صحبها الحيـاة والنماء والخير حيثما كانت ، فعندما كانت تسكن الديار كانت الحيـاة ، وما أن رحلت عنهـا حتى صـارت أطـلالا ٠٠ معنى ذلك أن الشاعر الجاهلى كان ينظر الى المرأة بعين التقـدير والاحترام ٠٠ بل وربما (التقديس) كما يقول بعض النقـاد « والا فلمـاذا صـوت رحـلة الظعن بأزهى حللها وكامل زينتها مع أن ذلك يجـرى فى ذكـرى الطلل ، والطلل يقترن بالحـزن لأنه فـراق ، فهـل يا ترى يسعد شـاعر وهو يفـارق صاحبته !! لابد أن

(٥) الحباب : طرائق المـاء أو أمواجه ٠ الحيزوم : الصدر ٠ المفايل : الذي يلعب لعبـة الصبيان الأعراب يقال لهـا : الفيال والمفايلة ، وهي عبـارة عن كـومة من الرمـل تقسم قسمـين ويخبـأ فى أحدهما شيء ما ، ثم يسـأل : فى أى الجانبين هى ؟

فان أصاب حصل على جائزة والا غـرم ٠

يكون وراء تلك الابهة شئ آخر يتصل باعتقاده . فاذا دققنا النظر نعرف ان هذه المرأة هى الشمس نفسها ، وان رحلتها رحلة الى العودة »(٦) .. ومن هنا تأتى رحلة الظعن تالية للوقوف على الأطلال فتثير جانبا من الذكريات الحلوة لدى الشاعر ، ويتحقق له نوع من الاستقرار النفسى بعد الحزن والأسى والقلق ، تلك التى خلفتها الأطلال .. ذلك ان المرأة ستحل فى مكان آخر تبعث فيه الحياة .

لقد بكى الشاعر الأطلال لأنها أشبه بالميت ، فكما بكوا أمواتهم بكوا أطلال الحبيبة .

ولئن كانت « الحبيبة بعيدة عن الشاعر ، فديارها حلت محلها فى اثارة عاطفة حبها ، فحين ثارت هذه العاطفة اقبل المحب يقبل جدران دارها ، فالديار وجدرانها هى المثير الصناعى ، والذى سوغ ذلك أن الحبيبة كانت تسكن الديار فوجود هذه اقترن بوجود تلك ، ومرت على ذلك الأيام حتى صارت الحبيبة ديارها وحدة متماسكة الأجزاء ، فاذا كان جزء قد رحل فان الجزء الآخر قد حل محله »(٧) .

وقد حدد طرفة مكان الأطلال (برقة ثهمد) ، وتذكر الظعن ووصفه وشبه حدوج المالكية (بخلايا سفين) ، وأخذ يصف المشبه به (السفن) مما يدل على أنه قد رأى تلك السفن مرارا ، بل أنه ذكر اسم ملاح شهير (ابن يامن) وذكر أن السفن العظام تصنع فى عدولى ، ووصف منظر شق صدر السفينة الماء وشبهه بقسم الفتى الترب .

---

(٦) الأساطير - دراسة حضارية مقارنة - د. أحمد كمال زكى : ص ٨٣ .
(٧) دراسات فى علم النفس الأدبى ٥٦ : د. حامد عبد القادر .

ولم يقف عند الأطـلال كثيرا ، وانما انتقـل سريعا الى الظعن ثم وصف المـرأة فى ابيات يقول فيها :

وفى الحى احوى ينفض المـرد شـادن
مظـاهر سمطـى لـؤلؤ وزبرجـد (٧)

خـذول تـراعى ربـربا بخميـلة
تنـاول أطـراف البريـر وترتـدى (٩)

وتبسـم عـن ألمـى كـأن منـورا
تخلـل حـر الرمـل دعـص له ندى (١٠)

سقتـه اياة الشمـس إلا لثـاتـه
اسف ولـم تكـدم عليـه باثمـد (١١)

ووجـه كـأن الشمـس حلـت رداءهـا
عليـه نقى اللـون لـم يتخـدد (١٢)

يصـور طـرفة فى هذه الأبيات غادة حسناء ، فهى (أحـوى)

---

(٨) المـرد : ثمـر الأراك ٠ الشـادن : ولد الظبية الذى كان يستغنى عن أمـه ٠ مظاهر : لابس ٠ سمطى : السمط الخيط من اللؤلؤ ٠

(٩) البرير : الذى يصعب ادراكه ٠

(١٠) ألمى : ثغـر أسمـر ٠ منور : ظهـر نوره ٠ حـر الرمل : أكرمه وأحسنه لونا ٠ دعص : كثيب من الرمـل ٠ له ندى : أى من أسفـله مـاء ٠

(١١) اياة الشمس : شعاعها وضؤوها ٠ أسف : ذر عليـه ٠ اثمـد : كحـل ٠ تكدم : تعض ٠

(١٢) يتخـدد : يتشقق ٠

اى مكحولة العينين ، والاحوى فى الأصل : ظبى له خطتان من السواد واراد سواد مدمع العينين ، وكنى بذلك عن المـراة ٠

ينفض المـرد أى يضـع يديه على سـاق الشجـرة ويمد عنقـه ويتناول ما طال من أغصانها ، يريد اثبات الطول فى عنق المرأة ٠٠

« والصـور فى غزل طـرفة دقيقـة كل الدقـة ، محكمة أشـد الاحكام ، فهو اذا ما شبه المـرأة بالمهـاة أو الظبية خص دوما المطفـل ذات الولد الصغير ، التى تخـذل القطيع وتعطف على ولدها »(١٣) ٠

فهو هنا يصفها بانها (خـذول) أى تخلفت عن صواحبها وخذلتهم لتتفـرغ لولدها ، وقد خص الخذول : لأنها تكون فـزعة ولهـة على ابنها ، فهى فى ترقب وانتبـاه ، ولذلك تشـرئب وتمد عنقها ، تراقب القطيع كيلا يبتعد عنها ، وتمد عنقهـا مراقبة وليدها ، ولأنهـا تكون منفـردة ، وهذا الانفـراد يعطى الناظر فرصـة كبيرة لتأمل حسنهـا وجمالها ، ولو كانت وسط صواحبها لم يستبن هذا الحسن ٠

وهى تحت الشجرة تنظر - فى حذر ويقظـة - الى قطيع الظباء بين الأشجار ، وحين تظفـر بما تريد من تنـاول الثمـر البعيد المتناول، صعب الادراك - وقد كسيت ثوبا من الخضـرة بتدلى اغصـان الشجرة عليهـا - تبتسم راضية بذلك ٠٠

وهذه الابتسـامة تكشف عن ثغـر يتميز بلثـة سمراء ، تزينـه أسنان بيضـاء ، شديدة البريق ، وبياضها مثل نور الأقحوان النضـر العـاجى الذى تخلل رمـلا صـافيا ٠ وأسنانها حادة اذ لم تعض بهـا شيئا صلبا ، فهى باقيـة على حدتها ودقة أطرافها ، وأما وجهها فهو

---

(١٣) طرفة بن العبد ، حياته وشعره : ص ٩٨ ٠

غـاية فى الجمال وكأن الشمس ألقت حسنها وبهجتها عليـه حتى صـار رداؤه الحسن والجمال ، فى لون لم يخالطـه اصفرار ولا تشقق ، وهذه عـلامة فتـاء السن ..

فى هذه الأبيـات القليـلة يصف طـرفة تلك المـرأة ، وقد تعجب حين تعلم أن طـرفة كان آنذاك فى عنفوان شبابه - أى يتوقـع منـه الحب والاعجاب بالمـرأة مما يطول معـه الحديث - لكن طـرفة لم يفعـل ، لقد كان مشغولا بأمـره ، وما كان من تحـاشى قـومه اياه رافعا راية التمرد على القبيلة ، ممعنا فى ملذاته وسكره ..

« وغـزل طـرفة وثيق الصـلة بحياته ، بل هو تعبير صادق عن الفترة الهنيئة القصـيرة التى اختلسها شاعرنا من حياته . ومن ثم كانت صـوره الغـزلية غنيـة مترفة ، توحى بالرفاهيـة وغضـارة العيـش وغنـاه ، وتتألق فيها الأضواء والألوان »(١٤) .

والدكتور (مصطفى ناصف) يعـامل الشعر على وجـه آخـر ، اذ ينمى أنه حديث عن الأطـلال والهوادج ..

وانما يتأمل (محـاولة نفس تريد أن تحيـا أو تشـرق أو تزدهر، تريد أن تنسى الألم والمعـاناة والحيرة) .

لقد استغنى (طـرفة) أو كاد يستغنى عن تجارب كثيرة ستلح عليـه فى وقت متأخر من القصيدة . وقد رمـز الى هذا التعفف الذى لم يستطع أن يثبت عليـه بالوشم . الوشم يطرح وراء ظهـره دنيـا واسعة . وبعبـارة أخـرى نرى طـرفة يروض نفسـه على الظـلال والرسوم وما يشبه الأشباح اليسيرة التى لا تروع أحدا .

---

(١٤) طرفة بن العبد ، حياته وشعره : ص ٩٧ .

من خلال الوشم يتمعن (طـرفة) فى شىء من الوهم لا يعبأ به ، ولا يجفـل منه ولا يهون من أمـره ..

الى أن يقول فى قول الشاعر :

يشـق حبـاب المـاء حـيزومها بهـا

كمـا قسـم الترب المفـايل باليـد

ان السفن والملاح وضعت جميعا فى اطار لا يخلو من المـرح ، ووضعت فكرة الغد التى سيرجع اليهـا طـرفة آخـر الأمـر فى اطـار المفـايلة . ومغـزى ذلك : أن (طـرفة) هنـا لا يعبـأ بالمستقبل ، ويستطيع أن يقسم الترب لا يخلط بعضـه ببعض ، ولا يروعه ما يحتويه الترب فى داخـله .

وانما يتصـور (طـرفة) نفسـه سابحا كالسفينة يشـق طريقه فى الحيـاة أو الفكر لا يجد فى ذلك عنتـا كثيرا ، ولا يصخب صخب الحـائر الذى أضنته الحيرة .

ولكن (طـرفة) لم يزعم أنه يعـرف الطريق ، وانما يتوزع بين الجـور والهـدى .

ولكنه يستقبل الدنيـا بنظـرة متفائلة فنظـر الى هـذا الظبى السعيد عند ثمـر الأراك ..

ثم تصـور فتـاة تتقلد سمطين من لؤلؤ وزبرجد ، وهى فتـاة لا تثقلها حـركة ، ورأت فى اللؤلؤ والزبرجد صفاء النفس ونقـاءها وخلوها من متاعب الدنيـا وهمومها ..

وراح (طـرفة) يمعن فى صـور أخـرى تشبع حاجته الشديدة الى الصفو والسلام فكان تصـوره لهذه البقـرة التى روعها الفقد وهى ترعى مع صواحبها ، انها بقـرة ثرية الذات آمنـة ، تجد نفسها فى

ولدها وصاحباتها وتحقق لحظات من الحياة خالية من الكلفة والحزن.
هذه هى مثل النفس التى يطمح اليها طرفة(١٥) ...

★ وصـف النـاقــــة :

وانى لأمضــى الهــم عنــد احتضــاره
بعــوجاء مــر قــال تــروح وتغتــدى(١٦)

امــــــون كالـــواح الأران نســـاتها
على لاحب كــأنه ظهـــر برجــــــد(١٧)

جمـــالية وجنـــاء تــردى كانهــــا
سفنجـــة تبـــرى لأزعــــــر أربــد(١٨)

. . . .

. . . .

تــريع الى صــــوت المهيــب وتتقــى
بــذى خصـــل روعــات اكلف ملبــد(١٩)

---

(١٥) راجع : صوت الشاعر القديم : ص ٢١٥، ٢١٦ بتصرف وايجاز
(١٦) احتضاره : حضوره . مرقال : ترقل أى تسرع فى السير .
(١٧) أمون : ناقة موثقة الخلق يؤمن عثارها وزللها . نساتها : حملتها على السير . لاحب : طريق بين واضح . برجد : كساء فيه خطوط وطرائق وهو من أكسية الأعراب .
(١٨) جمالية : تشبه الجمـل . وجنـاء : صلبة قوية . تردى : تعدو عدوا سريعا . البرى والانبراء : المنافسة والتعرض . أزعـر : قليل الشعر . أربد : لونه لون الرماد .
(١٩) تريع : ترجـع . المهيب : الجمـل الذى يصيح بصوت معين ينادى فيه الأنثى . تتقى بذل خصـل : تتحاشى الجمـل بهذا الذيل . الروعات : الفزع . الأكلف : لونه حمـرة الى السواد . ملبد : ذو وبر متلبد من البول والغائط .

كان الجاهليون يستمدون من ابلهم ونوقهم الصبر والجلد والقوة والثبات عند مواجهة الأزمات ، تلك الأزمات المتكررة المتوالية التى أنتجتها الطبيعة القاسية فى شبه الجزيرة ٠

ولذلك تلاحظ أن الشعراء وهم آخذون فى وصف نوقهم يحملونها - معهم - همومهم وينسونها من خلال رحلتهم مع الابل ٠

وقد كانت الناقة كذلك عند شاعرنا أساسيا هاما فى حياته ، فهى راحلته فى الأسفار ، وهى رفيقه فى الوحدة ، وأنيسه فى الغربة ، وهى وسيلته للضرب فى الأرض ، على متنها قطع المفاوز والفلوات وشرق فى الأرض وغرب ، وبها تقحم المهالك وسار فى الهواجر اللافحات ، فلا غرو أن يقبل عليها ليصف كل أعضائها (٢٠) ٠

فطرفة يمضى الهم عند حضوره بناقة (عوجاء) سريعة نشيطة فيها اعوجاج يساعدها على السرعة الشديدة (الارقال) ٠

وهى مكتملة الأجزاء (أمون) ، وهى فى تكامل أجزائها مثل (ألواح الاران) وهو تابوت كانوا يجعلون فيه سادتهم وكبراءهم دون غيرهم ٠

وهى مثل الجمل (جمالية) ٠٠ وأكثر شراح المعلقة يقولون انه يشبهها بالجمل فى الشدة والقوة ٠ غير أن المتتبع للأبيات الى نهاية المعلقة رابطا بين أجزائها سيجد أن الشاعر يرمى من وراء هذا التشبيه الى :

أنها لا تنجب ، أو لن تنجب مستقبلا بعد أن ثكلت ابنا وربما أبناء ٠

ومما يؤيد هذا الوجه قوله بعد ذلك :

---

(٢٠) راجع : طرفة بن العبد ، حياته وشعره (بتصرف) ص ١٠١،١٠٢.

تريع الى صـوت المهيب وتتقى

بذى خصـل روعـات أكلف ملبد

ان فحلها هنا يناديها وهو شديد الهيـاج يضرب بذنبه على ظهره عـلامة على شـدة طلبـه للأنثى ، لكنهـا تتقيـه بذنبهـا فترفعـه متمنعـة منـه ..

إن النـاقة هنا لا تريد مولودا جديدا لأنها ستثكله عما قـريب ، اذ سيكون (بوا) بعد أن يخطفـه المـوت .. لقد جربت ذلك وهى لا تريد تكـرار التجـربة ..

ان المـوت كان ماثلا أمـام طـرفة يملأ قلبـه وعقله وهو يصف هذه النـاقة .

ها هو منذ أبيات يشبهها (بألواح الاران) أو ليس هنـاك مشبه به يتحقق فيـه ما يريد طـرفة سوى تابوت المـوتى ؟؟ .. ان هـذا الايثـار من طـرفة لهـذا المشبه به يؤكد أن المـوت كان يسيطـر على أحاسيسه ومشـاعره .

ان (ألواح الاران) يصنع منها (تابوت الأشـراف) فقـط .. ولكنهم مع ذلك يموتون مثلما يموت سفلة الناس ودهماؤهم .

وناقة طـرفة رغم قوتها وشدتها صـلابة أجـزاء جسدها الا انها تخاف المـوت ولذا فهى تخشى الانجـاب ..

ويوالى طـرفة وصف ناقتـه ممعنـا فى بيان قوتها ، فيبين أنها صلبة كالأرض الغليظـة تارة ، وكالسفينة أخـرى ، وكالسندان وكالمبرد تارة ثالثـة :

كـان عـلوب النسع فى دأياتهـا

مـوارد مـن خلقـاء فى ظهـر قـردد (٢١)

وأتلـع نهـاض اذا صعـدت بـه

كسكان بوصـى بدجـلة مصعـد (٢٢)

وجمجمـة مثـل العـلاة كانمـا

وعـى الملتقى منهـا الى حـرف مبـرد (٢٣)

بل انها – أو على الأخص – تجـويفا العينين (ككهفى حجاجى صخـرة) .

والكهف له دلالته ، انه مأوى وملاذ وملجأ ، ففيه أمن ..

وشبهها بقنطـرة الرومى : أى جسر على المـاء يعبر عليه .

ولذلك دلالته أيضـا فهذا الجسر قريب من المـاء ، انه فـوقه ،

---

(٢١) العلوب : الآثار واحدها : علب . النسع : سير كهيئة العنـان تشـد به الأحمـال . دأيات : ضلوع الصدر . المـوارد : جمـع مـورد وهو المـاء الذى يورد . خلقـاء : ملسـاء أى صخرة . القـردد : أرض صلبة مستوية .. وظهـر القردد : أعـلاه أى : أن العلوب فى صدرها مثـل آثار المـوارد فى الصخرة الملساء .

(٢٢) أتلع : طويل العنق . نهاض : ينهض فى السير . صعدت به : رفعتـه . بوصى : ضـرب من السفن . والسكان : ذنب السفينة تصعد . تجـرى .

(٢٣) العـلاة : السندان . كانما وعى الملتقى : أى اجتمع وجبر فالتقى. حـرف مبرد : حده ، أى : كأن جمجمتها سندان فى الصـلابة والقوة ، وكأن ملتقى كل قبيلتين من رأس هـذه النـاقة حـرف مبـرد .

والمــاء هو الحيــاة ٠٠ ولعل ذلك يعكس تنازع الحيــاة والموت لطرفة ٠٠ فهو بين الأمــل واليــأس ، يحب الحيــاة لكنه يتوقــع المــوت فى كل لحظــة ٠

لقد وقف طــرفة عند أجـزاء النــاقة فوصفها جزءا جزءا ، وصفها فى حــركاتها وسكناتها ، بل وصف قلبها أيضــا ٠٠

وما كان طــرفة ليفعــل ذلك الا اذا كان محبــا لتلك النــاقة ، لقد أدام النظر اليها ، وجعــل منها تمثالا و (كان كلفــا بهذا التمثــال أكثر مما كان كلفــا بناقته) نفسها ٠٠

ان الجاهلين كانوا يعتمدون على الابل اعتمادا كليــا فى تنــاسى الهم ، فهى فى الملمات ملاذهم وعونهم ، حتى ان الجاهلى يوصى ابنه بأن يترك له ناقة أمام القبر ليركبها عند المحشر :

يقول عمــر بن زيد لابنــه(٢٤) :

ابنــى زودنى اذا فــارقتنى   فى القبر راحــلة برحل فاتر

للبعــث اركبهــا اذا قيــل اظعنــــوا
مستوثقــين معـــا لحشــر الحــاشر

ويقول (حريب بن الأشيم الفقعسى) موصيا ابنــه أن يعــد له بعيرا قويا يكون مركبه الى المحشر(٢٥) :

يا سعـــد امــا أهلــكن فــاننى
اوصيــك ان أخــا الوصــاة الأقــرب

---

(٢٤) المحبر : ٣٢٢ ، النوادر لأبى سعيد بن أوس الأنصارى : ٧٢ ٠

(٢٥) نفسهما ٠ وهذا الشعر يكاد قارئه يشــك فى نسبته الى العصــر الجاهلى ، فروحه اسلامية وكذا ألفــاظه ٠

لا تتركـن ابــاك يعثــر راجــلا

فى الحشــر يصـرع لليـدين وينكـب

واحمــل ابــاك على بعـير صــالح

تــقى الخطيئــة ان ذلـك اصــوب

ثم يشبه طـرفة ناقته ـ على عـادة الجاهليين ـ بالبقـرة الوحشية والثـور الوحشى قائلا :

طحــوران عــوار القــذى فتراهمــا

كمكحــولتى مذعــورة أم فرقــد (٢٦)

ان عينيها صحيحتان ليس فيهما قذى ، فهما مثـل عينى بقـرة وحشية لهـا ولد تخشى عليـه فهى تمد عنقهـا وتتلفت هنـا وهنالك حذرا .. وعينا البقرة الوحشية فى هذه الحالة أحسن ما تكون .

وأذناها كاذن ثور وحشى ، فهما محددتان ، وقد رفعتـا حـالة الحـذر والترقب .

مؤللتــان تعــرف العتــق فيهمــا

كسـامعتى شــاة بحـومل مفــرد (٢٧)

وتشبيه النـاقة بالثور لم يجىء اعتباطا ، وانما ورد كثيرا فى أشعار الجاهليين ، ذلك لأن الزور رمز للخصب وكذلك الناقة ، ثم تنظـر من التشبيهات الجاهلية بالثور الوحشى فتجـد ربطـا بينـه وبين المطـر « ولا تكاد تخلو الصــورة الكاملة للثور من اشــارة للمطر أو الطلل

---

(٢٦) طحوران : أى ترميان القذى . الفرقد : ولد البقرة .

(٢٧) مؤللتان : محددتان دقيقتان . سامعتى شاة : أذناها . والشـاة هنا : الثور الوحشى . حومل : اسم مكان .

وهو ينحدر فوق ظهـره ، وكأنما تمارس الطبيعة مع الثور ما يشبه بعض الطقوس الدينيـة ، فهى تغسـله وتطهره ، وتطيبه قبـل المعركة وقد عكف الجاهليون على هذه الصـورة فكرروها ولم يفقدوها مع ذلك الدم أو الحيـاة التى توقظ الفكر والاحساس والتى لا تجعلنـا نفتقـد جوانب التغيير فضـلا عن العمق الذى يؤكد أن الشـاعر الجاهلى كان انسانا قبـل أن يكون صانعا للنمط والزخرفة »(٢٨) ٠

والناقة مثل الثور فى ارتباطهما بالمطر ٠٠

ان أن النـاقة « تضطرب فى سيرها وتقدم كل نفسها بحثـا عن المطـر ٠٠ ومن الممكن أن يتأمل القـارىء رحلة النـاقة ـ على الدوام ـ حتى يسقط المطـر ، وما أشبه شئون النـاقة بفكرة الطقوس والفرائض التى تعين على الصـلة بذلك المطـر »(٢٩) ٠

اذا علمت ذلك فلا تعجب حين تجد ناقة طـرفة وقد حظيت بهذا النصيب الوافـر من الوصف فى المعلقـة ٠٠

« وان وصف طـرفة للناقة وصفا دقيقـا بارعـا ليدل على مدى حفـاوته بهذا الوصف ، وانفعـاله به ، وعلى أن الناقة لم تستحوذ على اهتمامه هذا الاستحواذ ، ولم تستقطر من عصـارة قريحته الشعرية ما استقطرت ، الا لأنها كانت فى معظم سنى حيـاته رفيقه الأمين ، وصاحبه الوفى ، وأنيسـه الأثير »(٣٠) ٠

وقد عبر عن ذلك بقـوله :

على مثلهـا أمضـى اذا قـال صـاحبى

ألا ليتـنى أفـديك منهـا وأفتـدى

---

(٢٨) د٠ عبد القادر القط : فى الشعر الاسلامى والأموى ص ٤١٦ ٠ دار النهضـة العربية ، بيروت ٠

(٢٩) د٠ مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ١٣٨ ٠

(٣٠) طرفة بن العبد ، حياته وشعره : ص ١١١ ٠

تمــرد طــرفة

سلك طــرفة طريق اللهو والعبث ، ولكنه وجد القبيـلة عائقا فى سبيـل تحقيق متعتـه الشخصية ، ومن هنا أعلن العصيان ورفـع راية التمــرد .

يقـول طــرفة :

اذا القـوم قالوا : من فتى ؟ خلت اننى

عنيـت فلـم اكســل ولـم اتبلـد

احلت عليهــا بالقطيــع فاجـذمت

وقــد خــب آل الأمعــز المتوقــد (١)

فذالـت كمـا ذالـت وليــدة مجلـس

تــرى ربهــا أذيـال سحــل ممـدد (٢)

ولسـت بحــلال التــلاع مخــافة

ولـكن مـتى يستـرفد القــوم أرفـد (٣)

---

(١) أحلت : اقبلت . القطيع : السوط . أجذمت : أسرعت . خب : جرى واضطرب . الآل : الســراب . الأمعــز : المكان الغليــظ الحصى . المتوقد : الذى يتوقد بالحــر .

(٢) ذالت : ماست فى مشيتها وتبخترت . وليدة مجلس : صبية أو جارية ، مولودة فى بلاد العــرب . سحل : ثوب أبيض من القطن وغيره . يشبه طول ذنب الناقة بطول ذيل ثوب الجارية .

(٣) حــلال : من الحلول وهو النزول . التــلاع : جمع تلعـة وهى أرض مرتفعـة غليظـة يتردد فيها السيل ، ثم يندفع منها الى تلعـة أسفل منها . والتلعـة : مسيل المــاء من أعلا الوادى الى بطون الأرض . وقيــل هو من الأضداد . وهذه التلاع تســتر من نزل فيها فيخفى عن الأعين . استرفد : طلب الرفد وهو المعونة والعطــاء .

وان تبغـنى فى حلقـــة القـوم تلقنى
وان تقتنصــنى فى الحـوانيت تصطـد (٤)
مـتى تاتنى اصبحـك كاســا رويــة
وان كنت عنهـــا غانيـــا فاغـن وازدد (٥)
وان يلتـق الحى الجميـــع تـلاقنى
الى ذروة البيت الكـــريم المصمــــد (٦)
ندامــاى بيــض كالنجـــوم وقينــــة
تــروح علينــــا بين بــرد ومجســـد (٧)

---

(٤) تبغنى : تطلبنى . حلقة القوم : مجلسهم ومحفلهم . الحوانيت : جمـع حانوت وهى بيوت الخمارين ، أى أنى رجـل جـد اذا جد الأمـر ، ورجـل لهو اذا فرغت .

(٥) أصبحك : أى أسقيك فى الصباح . روية : ترويك . وان كنت غانيا فاغن وازدد : أى : ان كنت غانيا بما عندك فاغن به وازدد بما عنـدنا .

(٦) ذروة كل شىء : أعـلاه . المصمد : الصلب الذى ليس فيــه خـور وهو الذى يصمد اليــه النـــاس من شرفه ، فيلجـأون اليــه عند الملمات والمصائب . ومن أسماء الله تعـالى (الصمد) الذى يصمد اليه فى الحوائج .

(٧) ندامای : أصحـــابى ورفـاقى على الشـراب . وقال أبو عبيدة : وأيضـا يقـال فـلان نديـم فـلان ، وان لـم يكونا على شراب . ويقـال : ان أصـل اطـلاق هـذا الاسم : لندامة (جذيمـة) حين قتـل نديميه (مالكا) و (عقيـلا) اللذين أتيـاه بعمـرو وابن اخته ، فسـألاه أن يكونا فى سمـره فوجد عليهما فقتلهمـا وندم ، فسمى كل مشارب نديما .

رحيب قطـــاب الجيب منهـــا رفيقـة

بجـس النـدامى بضـــة المتجــــرد (٨)

اذا نحـن قلنـا أسمعينـــا انبرت لنـــا

على رسلهـــا مطــــــروفة لم تشــدد (٩)

ومــا زال تشـرابى الخمـور ولــذتى

وبيعــى وانفــاقى طـريفى ومتــلدى (١٠)

كالنجوم : كالأعلام ٠ القينــة : الجارية المغنية ، وقيــل هى الجارية مغنية كانت أو غير مغنيــة ٠ تروح علينا : أى تاتينا عشية المجسد : الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفــران ٠ وقيــل هو الثوب الذى يلى جسد المـرأة فتعرف فيــه ٠

(٨) رحيب : واســع ٠ قطاب الجيب : مجتمع الجيب أى ما يتضــام من جانبى الجيب وهى استعارة ٠ أو هو مخرج الرأس منــه ٠ جس الندامى أى : يجســوا بأيديهم يلمسونها ، وذلك أن القينــة كان يفتق فتق فى كمها الى الرســغ فاذا أراد الرجل أن يلمس منها شيئا أدخــل يده فلمس ٠ بضــة المتجرد : أى ما ظهر وتعرى من جسدها رقيــق ناعم ٠٠

(٩) أسمعينا : أى من الغناء ٠ انبرت لنــا : أخذت فيما يطلب منهــا فغنت ٠ مطروفة : ساكنة الطــرف ٠ لم تشدد : أى لم تتكلف أو تجهد نفسها ٠٠ وقيـل : مطــروفة أى منكسرة العين كانها طرفت عن كل شىء تنظــر اليــه ٠

(١٠) تشــرابى : أى شرابى ٠

والطريف من المـــال : الحديث ، أو الذى يكتسبه الانسان بنفسه٠ والتليد : المــوروث ٠

الى ان تحـــامتنى العشـــيرة كلهـــا

وافـــــردت افـــراد البعـــير المعبــد (١١)

رايــت بنى غبـــراء لا ينـــكروننى

ولا أهـــل هــذاك الطــراف الممــدد؟ ١٢)

الا أيهــذا الــلائمى أحضـــر الوغـــى

وان أحضــر اللذات هــل انت مخلدى

فــان كنت لا تستطيع دفـــع منيتـــى

فــدعنى ابادرهـــا بمـــا ملــكت يــدى

فلــولا ثلاث هــن من عيشــة الفــتى

وجــدك لم أحفــل متى قــام عــودى (١٣)

فمنهــن سبــق العـــاذلات بشــــربة

كميت متـــى ما تعــل بالمـــاء تزيــد (١٤)

---

(١١) تحامتنى : تجنبتنى واعتزلتنى · البعير المعبد : الأجــرب المذلل الذى طلى بالقطــران ، وهو معبد مذلل لأنه يستلذ الطلاء فيسكن لذلك ·

(١٢) الغبراء : اسم للأرض · وبنو غبراء : المحاويج الفقراء ، سموا بذلك للصوقهم بالتراب ، وقيل هم الصعاليك · وقيــل : هم القوم يجتمعون للشراب من غير تعــارف · الطراف بيت من أدم ، وأهل هذا البيت هم الأغنيــاء المياسير · الممدد : الذى قد مد بالأطناب

(١٣) الجد : الحظ · وجدك : قسم · لم أحفل : لم أبال · العــود : الــزوار ·

(١٤) العــاذلات : اللائمات · كميت : حمــراء تضرب حمــرتها الى السواد ، وقيــل هى الخمر من العنب الأسود ·

وكـرى اذا نـادى المضـاف محنبـا

كسيـد الغضـا ـ نبهتـه المتـورد(١٥)

وتقصـير كـوم الدجن والدجن معجب

ببهكنـة تحت الخبـاء المعمـد(١٦)

كـأن البـرين والدمـاليج علقـت

على عشـر أو خـروع لـم يخضـد(١٧)

---

(١٥) الكر : الرجوع . المضاف : الخائف . المحنب : الذى فى يديه انحناء .. السيد : الذئب . سيد الغضـا : ذئب الغضـا . وهو أخبث الذئاب يتخفى فى شجر الغضـا .

نبهته : هيجته . المتورد : الذى يطلب ورود المـاء .

(١٦) الدجن : ظل الغيم فى اليوم المطير . البهكنة : جـارية خفيفة الروح طيبة الرائحة مليحة حلوة .

الخباء المعمد : بيت مرفوع بالعمد .

(١٧) البرين : الخلاخيل ، واحدتها : برة وهى حلقـة من صفر تكون فى منخر البعير . الدماليج : جمع دملوج وهو المعضد من الحلى. العشـر : شجر أملس مستو ضعيف العود ، شبه عظامها وذراعيها به . وقال ابن منظور : هو شجر له صمـغ وهو عريض الورق ينبت صعدا فى السماء وله سكر يخرج ن شعبه ومواضع زهره (اللسـان : عشر) . خـروع : هو كل نبات أو شجر رخـو . والخراويع من النساء : الحسان النواعم اللينات . لم يخضـد : أى لم يثن ويتكسر . وتخضير الشجر : تهذيبه وتشذيب أغصانه وأوراقه . وهو يشبـه هذه المـرأة البهـكنة بتلك الشجـرة فى الضخامة والامتلاء وكان خلاخيلها وأسورتها ومعاضدها معلقـة على أحد هذين النوعين من الشجـر غير المخضـد حتى يكـون اكبر حجما وأغلظ والتشبيه هنا للساعدين والساقين .

ذربنى أروى هـــــامتى فى حيـــاتها
مخـــافة شـــرب فى الحيـاة مصـرد (١٨)

كـــريم يـروى نفســـه فى حيـــاته
ستعلـم ان متنـا غـدا أينـا الصـدى (١٩)

تعليـــق :

يبدأ طـرفة فى هذه الأبيات بابراز مؤهلاته ··· فهو (الفتى) الفتى الأوحد فى القوم كلهم ··

وهذا البيت مما يتمثـل به من شعره ، وقد أخذ المعنى شـاعر آخـر فقـال :

لـو كـان فى الألـف منـا واحد فدعوا
من فـارس ؟ خـالهم اياه يعنـــونا

واذا كان لطـرفة فضـل السبق فان له فضل اجادة أيضا :

ذلك أن (القوم) قد يزيدون على الألف الى ما لا حد له ··

ثم ان (فتى) لا تعنى مجـرد الشباب ، وانما يعنى بها مجموعة من الخصـال الحميدة فهى تعنى : القـوة - ولذلك سموا الليـل والنهار فتيين لقوتهما - ، وهى السخـاء ، والكرم ، والمـروءة ، والعـدل ، والانصـاف ، والايثـار ، والوفاء ، والشجاعة ، والفروسية ، وحمـاية الضعيف ، واغاثة الملهوف ، والعفو ، وقوة الاحتمال ··· الخ ·

---

(١٨) الشـراب المصـرد : المقلل ·
(١٩) الصدى : كان أهـل الجاهلية يزعمون أنه اذا مات الميت خرجت من قبره هامة تزقو عليـه وكان يسمون الصوت : الصدى فأبطـل الاسـلام ذلك ·

قـال القتبى :

ليس الفتى بمعنى الشـاب والحدث ، وانما هو بمعنى الـكامل الجزل من الرجال ، يدلك على ذلك قول الشاعر :

ان الفـتى حمـال كـل ملمـة

ليس الفـتى بمنعـم الصبيـان(٢٠)

فكلمـة (فتى) فى بيت طـرفة أعم وأشمل من كلمة (فارس)٠٠

وقول طـرفة (لم أكسـل ولم أتباد) زيادة لا نظـير لهـا عند الشـاعر الآخـر ٠

يقوم طـرفة على الفور ـ دون كسل ولا بلادة ـ الى ناقته ٠٠

وكانى بطـرفة وقد صعب على نفسـه أن يترك الحديث عن الناقة؛ ولذلك تحدث عنها مـرة أخرى فى معـرض فخـره بنفسـه ، وكيف لا وهو يستمد قوته منها !!

لقد قام الى ناقتـه ، وضربها بالسوط فأسرعت ، وذلك حين كان السراب يتحـرك بسرعة فى مكان ممتلىء حصى ٠

وان الناقة لتتبختر فى مشيتها وهى فى ذلك تشبه تلك الفتـاة اللابسـة ثوبا ذا ذيل طويل تمشى به أمـام سيدها حتى يرى ذيل ثوبها ٠

أرأيت كيف كان حب طـرفة للنـاقة !! لذلك قلنـا انها لم تكن مجـرد حيـوان ٠

وينفى طـرفة عن نفسـه البخل فيقول : انه لا ينزل (التلاع) أى الأماكن التى تخفى من ينزلها عن الأعين ، وهو لا يفعـل ذلك لأنه كريم معوان يغيث من يستغيث به ، ويرفد من استرفده ٠

---

(٢٠) راجع : الفتوة عند العرب ، عمـر الدسوقى ص ١٩ وما قبلهـا ط لجنة البيان العـربي ٠

وانك لتجده فى الحـرب (حلقـة القوم) ، أو فى مجالسهم التى تعقد لحـل المعضـلات والأمـور الجسـام .. ولكنه يكون أيضـا فى الخمـارات .

واذا دققت النظـر فى البيت وجدت أن الشاعر يبين أن الأوقات المحببة لديه هى التى يقضيها فى الخمارات ـ هذا ما أفادته الأفعـال (تبغنى) (تقتنصنى ـ تصطد) .. فعبر عن طلبه وهو فى المهمات الجسـام بالفعـل الأول ..

أما طلبه فى الخمارة فعبر عنـه بالفعلين (تقتنصنى ـ تصطد) والقنص يكون فى البر ، فاذا تخيلت أن القنص واقـع على حيـوان فكم يتأبى ويتمنـع ويحاول بكل سلاح أوتيـه ألا يقتنص .. وأما الصيد فيكون فى البر والبحر . ففى القـرآن الكريم « احـل لكم صيد البحـر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما .. » .

وقيـل : لا يقـال للشىء (صيد) حتى يكون ممتنعـا حـلالا لا مـالك له .

اذاً فاخراج الشاعر من الخمارة كأنما تخرج سمكا من المـاء .. أى أن الخمارة بالنسبة اليه هى حياته الحقيقية ..

ولذلك فهو لا يخـرج مجيبا من يطلبه وانما يقدم له كاسا صبوحا تروى ظمـاه ..

ويفتخر بكرم أصـله ، وعزة أرومته ، اذ ينتمى الى البيت الرفيع (المصمد) الذى يقـرى الضيف ، ويغيث المكروب ، ولذا يلجـأ اليه النـاس فى حين أنه لا يحتاج الى الناس .

ويأخذ طـرفة وصف تفصيلات حيـاته اللاهية مع أصحابه الذين يشـاركونه الشـراب ..

لقد نادمه فتيان (بيض) ، أى أحرار وليسوا عبيدا ، وهم ليسوا أحرارا من عامة الناس بل هم (كالنجوم) أى أشراف مشاهير أعلام ، وتروح عليهم قينة تسقيهم الخمر ، لابسة ثوبين أحدهما لاصق بالجسد خفيف ، والآخر مصبوغ بالزعفران ٠٠ وقد اتسعت فتحة العنق والصدر من ثيابها حتى يستطيع الندامى ادخال أيديهم من خلالها ليتحسسوا جسدها ٠

وهى ازاء ذلك راضية بل رفيقة ، لا تتابى عليهم ، ولا تتمنع منهم وما ظهر عاريا من جسدها فهو ناعم الملمس ٠٠

ويطلب اليها الندامى أن تغنيهم وتطربهم فتجيبهم لذلك مترنمة فى رفق ورقة ، مسترخية ، لا تتكلف ولا تجهد نفسها أو تعلى صوتها بل يخرج صوتها رقيقا عذبا سلسا دونما جهد منها ٠

وطرفة سكير كبير ، أنفق فى سبيل الخمر كل طريف وتالد ٠٠ ويعلن الشاب – فى جراة متحدية – أن هذه هى حياته وسوف يستمر فيها ، ولا يحيد عنها على الرغم من أنها كلفته خسارة كبيرة ، لقد تجنبته القبيلة وصار وحيدا كالبعير (المعبد) ٠

و (المعبد) أى الذى أصابه (العبد) وهو الجرب ، وقيل هو : الجرب الذى لا ينفعه دواء ، وقيل هو المهنوء بالقطران الذى أفرد بعيدا عن الابل حتى لا يعديها ٠٠

وهو (معبد) لانه يتذلل لشهوته القطران وغيره فلا يمتنع (٢١) ٠
وأرى أن هذا المعنى الآخير أليق بمراد الشاعر ٠٠ صحيح أنه أبعد عن القبيلة وصار يعانى سجنا نفسيا رهيبا ، وما أقسى هذا

---

(٢١) راجع اللسان : عبد ٠

السجن ، انه شبيه بتعبير القـرآن عن الثلاثة الذين خلفوا (**حتى إذا ضـاقت عليهم الأرض بما رحبت وضـاقت عليهم أنفسهـم ..**) .. سجن مثـالى بابتعاد ذوى المخطىء وأهله وأقاربه عنه عقابا له على جريمة ارتكبها في حق نفسه أو في حق القوم .

وطـرفة يعانى من هذا السجن فهو مثل البعير الذى يعانى الافراد لكن البعير المعبـد بينما هو يطلى بالقطـران يستلذ ذلك ويستحليـه ويستزيد الطـالى ، فهو سعيد بهذا الطلاء وطـرفة سعيد بحياته تلك .. ولعـل هذا المعنى هو ما أراده الشاعر .

فهو يتمـرد على قبيلته ، معلنـا أنه رغم مـرارة ما به ـ من هذه المقاطعة ـ الا أنه وجد ما هو ألذ وأحلى ، انها حياته التى أحبها وعزم على المضى فيهـا ..

وهذا الفهم يؤيده البيت التـالى مباشرة ، اذ يبين طرفة من خلاله أنه وجد بديلا عن القـوم ، هـذا البديل ممثـل فى هؤلاء الفقـراء المحاويج الذين لم ينكروا أياديه وافضـاله عليهم .. وكذلك فى هـؤلاء الأغنياء المياسير الذين اعتزوا به ، لأن حياته كحياتهم ..

رأيـت بنى غبــــراء لا ينكــروننى
ولا أهــل هــذاك الطــراف الممـدود

- **امعـان فى العنـاد والتحدى :**

ويزداد طرفة تمسكا بحياته هذه ، ويتحدى لائمه قائلا :

الا أيهــذا الـلائمى أحضــر الـوغى
وأن أشهـد اللذات هـل أنت مخـلدى ؟

انه يخاطب لائمه ويوجه له سؤالا يعرف اجابته : هل أنت بمستطيع

اخـلادى ؟ بالطبع لا ، وما دمت غير مستطيع ذلك فدعنى أسـارع الى اقتنـاص الفـرص ما امكنتنى - بشرب الخمـر وباللهو - وبذلك أبادر المـوت ٠

وانه لأمـر ميسور الآن ، أما بعد الموت فهو لا يضمن ذلك ، وهذا مما دعاه الى الادمان والافـراط فى الشرب ، لانه يخشى الموت ، ليست خشية مما بعد الموت وانما - فقط - لأنه به سينقطع الشرب ٠٠

وكان طـرفة بذلك يتحدى لغـز الموت ، هذا الذى أدام التفكير فيـه فوجده غامضا ، مخيفا ، رهيبا ٠

« هذا هو تفكير طـرفة ، الشاعر الشاب الذى يريد أن يتكشف فكرة المصـير الذى تطرق وجدان الشعوب فى بداية السلم الحضـارى هذه هى الشخصية القوية التى تحس وجودها على نحو قوى »(٢٢) ٠

ويذكـر طـرفة أن هناك أشياء ثلاثة هى التى جعلته يحـرص على الحيـاة ، ولعـله رتبهـا حسب أهميتها عنده فجـاءت على هذا النحـو :

أولهـــا :

٠ ٠ ٠ سبق العـاذلات بشـرية

كميت متى مـا تعـــل بالمـاء تـزبد

انه ليس شـرب الخمـر مجردا من اللهو والضحك ، وانما مجلس يضم العاذلات مع الفتيـان ومن بينهم (طـرفة) وهؤلاء العـاذلات يتسابقن مع الشاعر فى الشرب فيسبقهم ، والخمـر التى يشربها ليست خمـرا عـادية وانما هى (كميت) أشرب لونها حمـرة لأنها معتقة ، ومتى صب عليهـا المـاء أزبدت ٠

---

(٢٢) د٠ مصطفى ناصف : قراءة لشعرنا القديم ص ١٧١ ٠

ثانيتهــا :

وكــرى اذا نــادى المضـــاف محنيــا

كسـيد الغضـــا نبهتـــه المتـــورد

اغـاثة المستغيث واعـانة اللاجىء اليــه فحينئذ يسرع الى فــرس يشبه الذئب الخبيث المـثار يريد المـاء .

ثالثتهــا :

وتقصــير يوم الدجن ، والدجن معجب

ببهكنـــة تحـت الخبـــاء المعمـــد

الاستمتاع بالمـرأة الجميلة الممتلئة السمينة - فى اليوم المطـير الذى تلبدت سماؤه بالغيـوم - تحت بيت مرفـوع بالعمد .. هذا فى حين يتعجب النــاس من هذا اليوم لشدة أمطاره وكثرة غيمه .

ثم يقول : كان خلاخيل المـرأة وأسورتها ومعاضدها معلقـة على أحد نوعين من الشجر : عشر أو خروع (غير مخضد) أى لم يؤخذ من اغصـانه شىء فهو غليظ .. وهو هنـا يشبه ساعديها وسـاقيها بأحد هــذين الشجرين ..

ويرى طـرفة أن النعيم الحقيقى انما هو فى اغتنام هذه اللذات والفــوز بهـا ، أما العـاذل اللائم فسوف يكون صـاديا لا ينعم بشىء طالمـا أنه لم ينعم به فى الدنيـا قبـل الموت ، ذلك لأن طـرفة يرى أنه ليست هناك متعـة بعد الموت .

تلك هى الحيـاة التى أحبهـا طـرفة وفى سبيلها استغنى عن القبيلة كلها ، فكم بلغ حبــه لهذه المتــع !!

وطـرفة - وهو يرى فى تلك المتـع الحيـاة الحقيقية - يحقـر ويهون من شـأن هؤلاء اللائمين وقصر نظراتهم الى الحياة ..

. . . .

ستعلم ان متنا غدا اينا الصدى

● الجاهليون والمـوت :

أحس الجاهليون احساسا قويا بالموت وحتم وقوعه ، ورأوا تلاعب القدر بهم وتقلب صرفه عليهم فى هذه الحياة المحدودة الفانية .. وكان هذا الاحساس زائد الحدة وقد يبلغ درجة العنف وذلك لقسوة الطبيعة عليهم قسوة نادرة النظير ، بالاضافة الى تناحر القبائل على الماء وغيره .. ولا نبالغ اذا قلنا ان أحدهم ما كان يأمن الموت فى يوم من أيام حياته بل هو خطر ماثل أبدا ، فان ضمن الطعام لموسم من مواسم السنة فهو لا يضمنه للموسم التالى ، وان ارتاح فى خلال موسم الخصب من عداوة الطبيعة فهو لا يرتاح من عداوة القبائل الاخرى ..

وجد الشاعر الجاهلى عزاءه فيما يستطيع أن يغنم من ملذات الحياة ولما لم يؤمن الجاهلى الا بتلك الحياة وجدوا حلا واحدا يخلق بكرامة الانسان ورجولته هو : أن يتحدى بقوته المفردة صروف الدهر وأن يبذل كل جهده فى استنزاف كل قطرة من الحياة قبل أن تنتهى انتهاءها الأبدى(٢٣) ..

واذا كان الجاهليون كثيرا ما ينقلون من وصف اللذة والبهجة الى وصف الموت والفناء ، ويمزجون بين البهجة والتشاؤم ، والفرحة والحزن .. فان سيدهم جميعا فى تصوير هذه النظرة السوداء : الفتى الذى مات مقتولا فى سن العشرين ، ولكنه لحسن حظ أدبنا

---

(٢٣) راجع الشعر الجاهلى ، محمد النويهى : ص ٤٢٦ وما قبلها .

العـربى ترك لنـا معلقته الباهرة قبـل ميتته المبكرة ، وضمنها أبياته التى لا ندرى : أنعجب بعاطفتها الملتهبة وأدائها الفنى المتقن أم نرتاع من هذه الحساسية المفـرطة الرهيبة التى لا تشتد علينـا عادة الا حين يدركنـا الهـرم ، لقد قـرأت الأبيـات فى تصـوير لذته فمـاذا قال عن المـوت بعدها مبـاشرة ؟؟٠

● **طـرفة ونظرته الى الموت :**

يقـول طـرفة :

أرى قبـر نحـام بخيـل بمـاله
كقبـر غـوى فى البطـالة مفسـد (٢٤)

تـرى جثـوتين من تـراب عليهمـا
صفـائح صـم من صفيـح منضـد (٢٥)

أرى المـوت يعتـام الكـرام ويصطفى
عقيـلة مـال الفـاحش المتشـدد (٢٦)

أرى العيـش كنـزا ناقصـا كل ليـلة
ومـا تنقص الأيـام والدهـر ينفـد

لعمـرك ان المـوت مـا أخطـأ الفـتى
لـكا لطـول المـرخى وثنيـاه فى اليد (٢٧)

---

(٢٤) النحام : البخيل الحريص على المـال ، يخرج صوتا فيه أنين تشددا على ماله ٠ الغوى : الضال والمقصود به هنا المبذر ٠

(٢٥) الجثوة : التراب المجموع فى كومة ٠ الصفائح : صخور عراض صم صلاب ٠ المنضد : الذى نضد على القبر ٠

(٢٦) يعتام : يختار ٠ عقيلة كل شىء : خيرته وأنفسـه عند أهله ٠ الفاحش : البخيل ٠ المتشدد : الممسك البخيل ٠

(٢٧) الطول : الحبل المرخى وهو بيد الانسان يجذبه أينما شـاء ٠ ثنياه : أى طرفاه المثنيان منه ٠

أن الموت يلح على طـرفة وهو ينشىء المعلقـة ، ولذا تجد الحديث عنه يتخلل المعلقة كلها وقد سبق أن أشرت الى ذلك عند قوله :

أمـــون كالـــواح الاران نســـأتها

على لا حـب كـانه ظهـــر برجـــد

وكذلك فى تأبى النـاقة وتمنعها عن الذكـر .

تـريع الى صـوت المهيـــب وتتـقى

بذى خصـــل روعـات أكلـف ملبـد

وقد أشرت الى أن امتناعها كان سبب خوفها من الموت ..

وفى تحـديه للائمـه وطرحه عليه السؤال المعـروفة اجابته : هل تستطيع اخلادى ؟ وقوله : لن تستطيع دفـع منيتى ..

لقد كان طـرفة فى مرحلة من العمـر غالبـا ما ينسى معها صاحبها التفكير فى المـوت ، لكن طـرفة وهو يعيش تلك المرحلة يقف أمـام الموت ويطيـل التفكير فيـه .

وقد توصـل الى ما يلى :

— أن المـوت لا يفـرق بين غنى وفقير ، وتقى وغـوى ، فهـاتان كومتان من التراب ، رصت عليهما صخور صـلاب ، لا فرق بين هذه وتلك ، اذ لا ترى أثرا لغنى أو لفقر ، فالكل سواء .

— والمـوت يختـار أكـرم ما عند البخيل المسـك ليختطفه ... وكأن طـرفة يريد أن يقول للائميه :

لمـاذا الامسـاك اذاً ؟ ولمـاذا الاكتناز ؟ أو ليس اغتنام الملذات والانفـاق عليها ـ وهذه سبيلى أفضـل !!!!

— العمـر بمثـابة كنز يتناقص يوما بعد يوم حتى يؤدى الى الانتهاء

والكل فى ذلك سـواء ، فلا أحد مخلد ، اذاً فلمـاذا لا يشبـع الانسـان رغبـاته !!

تلك صرخات انسـان حائر أدمن التفكير فى الموت ، ومزقته الحيرة فى بحث أسرار الوجـود والعدم ، والبدء والنهاية ٠٠ وحاول أن يروى ظمـأه من متاهات الوجـود ، ولغـز العدم ، فلم يظفـر ولو بقطرات قليـلة من ضـوء اليقين ، فكان تخبطه من ممارسات الحيـاة اليوميـة الثـائرة على قيم المجتمع ، وانهماكه فى مغامرات اللذة المتمردة على التقـاليد المـألوفة ٠٠ »(٢٨) ٠

لقد استبدت الحيرة والقلق بالشاعر ـ كما هو واضح فى المعلقة ـ ولعـل ذلك بسبب تحاشى القبيـلة اياه ، وافـرادها له افراد البعـير المعبد ، وكابر طـرفة وعاند وظل سادرا فى غيـه وضلاله ، لكن أثر العقاب واضح على طـرفة من خـلال شعره ممها حاول اخفـاءه ٠٠٠ ولاسيما فى مثـل المجتمـع البدوى الجـاهلى الذى يصعب فيـه على الانسـان أن يعيش وحـده اذ سيقع فريسـة للخوف ، هـذا الخـوف الذى نصب شباكه حـول طـرفة ٠

نعم لقد كان طـرفة خائفا ولذا فكـر فى المـوت وخاف منه ، فعبر عنـه تعبيرا صـادقا بلغ غاية فى الجمال :

لعمـرك ان المـوت مـا اخطـأ الفـتى

لـكا لطـول المـرخى وثنيـاه فى اليـد

أرأيت كيف كانت صورة الموت فى ذهن الشاعر !!

ان الموت ممسك بالانسـان مثـل لجـام الفرس الذى يمسك به

---

(٢٨) راجع : قراءة ثانية لشاعرنا القديم ، د٠ مصطفى ناصف ١٧١ ٠

الفارس فمهما امتد عمـر الانسـان فان الموت ممسـك به ، فكيف يفـر منـه أحد وهو قد لجم بهذا اللجـام !! وما هو الا أن يوقفـه ولا يرخيه وهو اذ يفعـل ذلك لا يستشير من سيموت ..

أن التصوير هنا يبرز كم الخوف المسيطر على طرفة ..

ولعلك ـ وأنت تقـرأ الأبيـات ـ تلاحظ أن الشاعر يكرر كلمـة (أرى) مما يدل على كثرة تفكره وادامته النظـر فى لغـز الموت حتى وصـل الى ما وصـل اليه ، وكأنه لم يكن يهمه شىء سوى تلك (الظاهرة) التى رصـدها .

● الفـاظ القصيدة وموقف الدكتور طه حسين منها :

بعد هذه الجولة الممتعة مع معلقـة الشـاب القتيـل تلاحظ أن الألفـاظ فى معـرض الحديث عن الخمـر والندامى .. الفاظ لينـة ، بخلاف الفـاظه فى النـاقة ..

ومـن هنـا :

شكك الدكتور ط.حسين فى هذا الجزء من المعلقة قائلا :

« وأنت اذا قـرأت شعر طـرفة رأيت فيـه ما ترى فى أكثر هذا الشعر الذى يضـاف الى الجاهليين ، ولاسيما المضريين منهم ، من متانة اللفظ وغرابتـه أحيـانا ، حتى لتقـرأ الأبيات المتصلة فلا تفهم منهـا شيئا دون أن تستعين بالمعـاجم » .. الى أن يقول : « وانظـر هـذه الأبيـات التى يصف بها النـاقة » .. ثم يذكـرها .. ويقول : « ان أكثر هذه الأوصـاف اقـرب الى أن يكون من صنعة العلمـاء باللغـة منـه الى شىء آخـر »(٢٩) .

---

(٢٩) فى الأدب الجاهلى ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، الطبعة الحادية عشرة ، دار المعـارف .

ثم يذكر أبيات طرفة فى مجلس الشرب والقينة ٠٠ الخ ويقول :

« سترى فى هذه الأبيات لينا ولكن فى غير ضعف ، وشدة ولكن فى غير عنف وسترى كلاما لا هو بالغريب الذى لا يفهم ، ولا هو بالسوقى المبتذل ٠٠ »(٣٠) ٠

ويعلق على الأبيات :

وما زال تشرابى الخمور ٠ ٠

الى قوله :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الطراف المعمد

بقوله :

« فى هذا الشعر شخصية بارزة قوية ، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منحولة أو مستعارة ٠ وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الالحاد ، بينة الحزن واليأس والميل الى الاباحة فى قصد واعتدال » ٠

(هذه الشخصية تمثل رجلا فكر والتمس الخير والهدى فلم يصل الى شئ ، وهو صادق فى يأسه ، صادق فى حزنه ، صادق فى ميله الى هذه اللذات التى يؤثرها ٠٠) ٠

ومن هنا : لم يشك فى نسب هذا الجزء الى الجاهليين ٠ ٠ وشك فقط فى شعر الناقة ٠

غير أن الدليل الذى أقام عليه شكه ليس مقنعا ، بل هو مرفوض ٠ ذلك :

أنه يصف ناقة قوية ، صلبة متماسكة الأجزاء ، ويناسب ذلك كله الألفاظ القوية الجزلة ، والتراكيب الرصينة ٠٠

---

(٣٠) نفسه ٠

بخلاف السلسة العذبة .. وما ينهض من الالفاظ بغرض لا ينهض بغيره .

(فالألفاظ تنقسم فى الاستعمال الى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها فانه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد ، وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ...) .

هذا قول ابن الأثير (٣١) ..

ويقول القاضى الجرجانى (٣٢) :

(... بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعانى ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعريضك مثل تصريحك بل ترتب كلا مرتبته ، وتوفيه حقه ، فتلطف اذا تغزلت ، وتفخم اذا افتخرت ، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه ..) .

وأما استدلال الدكتور (طه) على الشك فى هذا الشعر بانه يحتاج الى الرجوع الى المعاجم فهذا دليل (لا يقوم بهذا الشك الذى ذهب اليه ، فان اللغة تساير العصر وروحه ، ولغة الجاهلية

---

(٣١) المثل السائر لابن الأثير ٢٤٥/١ وما بعدها ـ تحقيق د. الحوفى ود. طبانة ـ ط ثانية .

(٣٢) الوساطة : ص ٢٤ ، تحقيق البجاوى وأبى الفضل ، ط الحلبى.

والصحراء تختلف عن لغة الاسلام ولغة الحواضر .. وليس ذلك مقصورا على شعر طـرفة ، بل فى الشعر الاسلامى والعباسى ما يحتـاج الى الرجـوع الى معاجم اللغـة ...

وحتى الأبيات التى ارتضـاها وأثنى عليها شك فى قائلها ... هل هو طـرفة أم شخص آخـر !!

ولا يصـل التحقيق العلمى به الى غاية من الغـايات المنشـودة من البحث المنطقى السليم(٣٣) .

المعـــانى :

لقد بلغ طـرفة فى ريق شبابه مرتبـة عالية فى عالم الشعراء ، لم يبلغها شعراء آخـرون أفنوا أعمارهم فى قـرض الشعر ، مما يدل على حدة ذهنـه ، ونباهة فكره ، وخصوبة موهبته ، ورهافة حسه ، وقـوة شـاعريته ..

أنه من الأوائل الذين عبدوا الطـريق لمن بعدهم ، ووضعوا لهم الأصول ، لقد وقف القدماء عند كثير من تلك المعـانى التى سبق اليها طـرفة ، وأقروا له بالسبق والابتكار .

ذكر الجاحظ : أن رجلا أنشد عمـر بن الخطاب - رضى الله عنه - قـول طـرفة :

فـلولا ثلاث هن من عيشـــة الفـتى

وجـدك لم أحفـل متى قـام عـودى

فقال عمـر معارضا قول طـرفة : « لولا أن أسـير فى سبيل الله

---

(٣٣) د. بدوى طبانة : معلقات العرب ص ١٢٥ ، وما قبلها (بتصرف وايجـاز) .

واضـع جبهتى لله ، واجالس قـومًا ينتقون اطيب الحديث كما ينتقون أطايب الثمـر ، لم أبال أن أكون قد مت » .

وسمع عمـر بن عبد العـزيز هذه الأبيات (فلولا ثلاث ...) فقال : أنا والله لولا ثلاث لم أحفـل متى قام عـودى : لولا أن أعدل فى الرعيـة ، واقسم بالسـوية ، وانفـر فى السرية »(٣٤) .

وناقض عبد الحميد بن أبى الحديد البغدادى أبيات طـرفة (فلولا ثلاث ..) فقال(٣٥) :

لـولا ثـلاث لـم أخـف صـرعتى
ليسـت كمـا قـال فـتى العبـد
ان أنصـر التوحيـد والعـدل فى
كـل مـكان بـاذلا جهـدى
وان انـاجى اللـه مستمتعـا
بخـلوة أحـلى مـن الشهـد
وان اتيـه الدهـر كبـرا عـلى
كـل لئيـم اصعـر الخـد
لـذاك اهـوى لا فتـاة ولا
خمـر ، ولا ذى ميعـة نهـد

---

(٣٤) راجع : العقد الفريد ٢١٢/٧ ، طـرفة بن العبد حياته وشعره : ص ١٨٨ .

(٣٥) معاهد التنصيص ٣٦٤/١ ، وطرفة بن العبد ، حياته وشعره : ص ١٨٩ .

الخيـــال :

من أهم عـوامل عبقرية طـرفة التصـوير الدقيق البارع ، فآلتـه المصـورة وريشته الراسمة ـ ان صح التعبير ـ فيهما امكانات عاليـة مكننة من فن التصـوير تمكنا عظيما .

ومعظم صـوره تقوم على التشبيه ومن أبرز ما له فى ذلك وصفه للنـاقة :

أمـــون كـالـــواح الاران نســـاتها
على لاحب كـأنه ظهـــر برجـــد

وقـــوله :

لهـــا فخـــذان أكمـــل النحض فيهما
كأنهمـــا بابا منيـــف ممـــــدد (٣٦)
وطـــى محـــال كالحـنى خلـــوفه
وأجـــرنة لـزت بـداى منضـــد (٣٧)
كـأن كنـــاسى ضـــالة يكنفـــانها
وأطـــر قسـى تحـت صلـب مؤيـد (٣٨)

---

(٣٦) النحض : اللحم . المنيف : قصر مشرف . الممدد : الأملس .

(٣٧) طى محال : أى لها فقـار ظهر متراصفة . الحنى : جمع حنية وهى القوس . الخلوف : مآخير الأضلاع . الأجـرنة : جمـع جـران وهو باطن الحلقوم .
لزت : ألصقت . الدأى : فقـار العنق . المنضد : الملصق بعضه ببعض .

(٣٨) الكناس : ما يحتفره الثور الوحشى فى أصـل الشجرة يكنه من الحـر والبرد . الضـال : شجر . أطـرقسى : قسى معطوفة . المـؤيد : المشدد .

لهـا مرفقـــان افتـــلان كانمـــــا

امـــرا بسلمـي دالـــج متشـــــدد (٣٩)

كقنطـــرة الـــرومى اقســـم ربهـــا

لتكتنفـــن حـــتى تشـــــاد بقـــرمد (٤٠)

ومن أروع تشبيهاته قـوله :

لعمـرك ان المـوت مـا اخطـــأ الفتى

لـكا الطـول المـرخى وثنيـاه فى اليد

أى أن الموت اذا أغفـل بعض النـاس ، فطال عمرهم لا يخرجون عن قدرته وسلطانه ، فمثـله كمثل من بيده طـرفا حبل مربوط برأس فـرس اذا شـاء جذبه اليــه فانقـاد له ، كذلك الانســان لا محالة ميت ، وان طـال عمـره ٠

وأما استعاراته فهى أقل ومن جميل استعاراته قوله فى المعلقة :

سقتـــــه ايـاة الشمـس الالثـــاتة

أسـف ولـم تكـدم عليــــه باثمـــد

ومن الألوان البديعـة فى المعلقـة :

الطبـــــاق :

فى قـوله :

ومـا زال تشـــرابى الخمـور ولـذتى

وبيعـى وانفـــاقى طـــريفى ومتلدى

---

(٣٩) افتــلان : متجافيان عن زورها ٠ أمــرا : فتــلا ٠ السلم : الدلو الدالج : الذى يدلج الدلو الى الحوض ٠ متشدد : لأنه يتشدد اذا باعد عضديه عن زوره ٠

(٤٠) لتكتنفن : لتؤتين من أكنافها أي من نواحيها ٠ القرمد : الآجر ٠

وقـــوله :

رأيـت بنى غبـــراء لا ينكـرونني

ولا أهـــل هـذاك الطـراف الممـدد

وقـــوله :

كـريم يـروى نفســـه فى حيـــاته

ستعـلم ان متنـــا غـدا أينا الصـدى

وغير ذلك كثير فى المعلقــة .

ومنهـــا : الترصيع فى قوله :

بطىء عن الجلى ، سـريع الى الخنـا

ذلـول باجمـــاع الرجـــال ملهـــد

وبعـــــد ..

فهذه نظـرات سريعـة فى معلقة طـرفة ذلكم الشاعر الفحـل ، والحق أنها تحتاج الى وقفات طويلة ولعل ذلك يتاح لنا فيما بعد .

* * *

الخنساء ترثى صخرا

الشاعرة :

تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد (عمرو) بن رياح ابن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم ابن منصور(١) ٠

و (الخنساء) لقب اشتهرت به وغلب عليها ٠

وكنيتها : أم عمرو ٠ وهى أخت صخر ومعاوية ابنى عمرو بن الحارث ٠٠٠

و (صخر) غير شقيق ، أما (معاوية) فهو شقيقها ٠

و (الخنساء) مخضرمة ، عاشت فى الجاهلية ، ثم وفدت فى وفد بنى سليم الى رسول الله - ﷺ - فاسلمت مع قومها ، وعاشت بعد ذلك - على الأصح - الى خلافة (عثمان بن عفان) - رضى الله عنه(٢) ٠

ومع ذلك ينسبها بعض النقاد - فنيا - الى العصر الجاهلى ، ومن هؤلاء : ابن سلام(٣) ، وابن قتيبة(٤) ٠

ولكننا لا نسلم لهم بذلك ، فللخنساء شعر اسلامى ظهرت فيه تعاليم الاسلام وقيمه وأخلاقه فكيف ننفى عنها الخضرمة !!

---

(١) ترجمتها فى : أسد الغابة ٨٨/٧ وما بعدها ط الشعب ، الاصابة ٧٤/٨ ط الشرقية ١٩٣٥م ، الاستيعاب ١٨٢٧ ، الشعر والشعراء ٣٤٣ ، الأغانى ٧٦/١٥ (دار) ، جمهرة أنساب العرب ٢٦٢

(٢) أنظر كتب الصحابة المذكورة ٠

(٣) طبقات فحول الشعراء : ٢٠٣ ، تحقيق محمود شاكر ، ط المدنى٠

(٤) الشعر والشعراء ٣٤٤

وكان أخوها (معاوية) سيد قومه صديقا لـ (دريد بن الصمة) الشاعر الفارس ، ورأى (دريد) الخنساء فاعجب بها وخطبها إلى أخيها لكنها رفضته قائلة لأخيها(٥) :

اتكرهنى هبلت على (دريد)
وقد أصفحت سيد آل بدر ؟(٦)
لئن لم أوت من نفسى نصيبا
لقد أودى الزمان إذا بصخر
أيوعدنى حجية كل يوم
بما آلى (معاوية بن عمرو) ؟
وهم أكفاؤنا فى كل خير
وهم اكفاؤنا فى كل شر
معاذ الله يرضعنى حبركى
قصير الشبر من جشم بن بكر(٧)
يرى شرفا ومكرمة اتاها
إذا اغذى الجليس جريم تمر
لئن اصبحت فى جشم هديا
إذا اصبحت فى ذل وفقر
قبيلة إذا سمعوا بذعر
تخفى جمعهم فى كل جحر

وتزوجت (الخنساء) رجلا من بنى قومها هو (رواحة بن

---

(٥) ديوانها : تحقيق د٠ ابراهيم عوضين ص ٢٩١ ، وأمالى القالى ١٦/٢ ٠ وغيرهما وقد اختلف ترتيب الأبيات فى المصادر ٠
(٦) أصفحت : رددت ٠
(٧) حبركى : قصير الظهر طويل الرجلين ٠

عبد العزى) فولدت له (عبد الله) وهو (أبو شجرة) ٠٠ وكان (رواحة) هذا رجلا سكيرا مقامرا متلافا للمال ، مما جعل (الخنساء) تأتى أخاها (صخر) فتسأله مالا ، وذلك لما هم (عبد العزى) بالرحيل للحصول على مال ٠

وما لبث أن أتلف ما أعطاه (صخر) للخنساء ، فعادت إلى (صخر) مرة أخرى ، فقام إلى ماله ليشطره شطرين فقالت له زوجه: أعطها أخس مالك ، فقال صخر(٨) :

والله لا أمنحها شرارها
وهى حصان قد كفتنى عارها
ولو هلكت مزقت خمارها
واتخذت من شعر صدارها

ثم شطر ماله وأعطاها خير الشطرين ٠ ولما مات (صخر) مزقت (الخنساء) خمارها ، واتخذت من شعر صدارها ٠٠ وافترق الزوجان، ثم تزوجت (الخنساء) برجل آخر هو (مرداس السلمى) (أبو العباس بن مرداس) ٠ وكان على النقيض من (رواحة) ، إذ لقب بـ (الفيض) لكرمه وسخائه ٠٠ ولكنه مات بعد أن أنجبت منه ثلاثة بنين وبنتا ، ورثته بقولها(٩) :

وفضل مرداسا على الناس حلمه
وأن كل هم همه فهو فاعله
وأن كل واد يكره الناس هبطه
هبطت وماء منهل أنت ناهله

الخ ٠

---

(٨) الشعر والشعراء ٣٤٦ ، الإصابة ٣٥٢/٨ ، العقد الفريد ٢٢/١ ، شرح ديوان الخنساء ص ١١ ٠

(٩) شرح ديوان الخنساء ص ٧٧ ٠

منزلتها الشعرية ٠

ـ جعلها (ابن سلام) فى الطبقة الثانية بين أصحاب المراثى مقدما عليها : متمم بن نويرة ، وقدمها على أعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوى (١٠) ٠

ـ وقد فضلها (الشعبى) على نساء الجاهلية أجمع ٠٠

ـ وسألوا (جريرا) عن أشعر الشعراء فقال : أنا ، لولا هذه الخبيثة ـ يعنى الخنساء ـ فسألوه : بم فضلتك ؟ قال : بقولها :

إن الزمان وما تفنى عجائبه

أبقى لنا ذنبا واستؤصل الرأس

أبقى لنا كل مجهول وفجعنا

بالحالمين فهم هام وأرماس

إن الجديدين فى طول اختلافهما

لا يفسدان ، ولكن يفسد الناس(١١)

ـ وقال (ابن عبد البر) : وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم يكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها(١٢) ٠

ـ وكان (بشار) يقول : لم تقل امرأة شعرا الا ظهر الضعف فيه ، قيل له : وكذلك الخنساء ؟ قال : تلك فاقت الرجال ٠

ـ وأثناء النزال الشعرى فى سوق عكاظ جعل لها (النابغة الذبيانى) المكانة الثانية بعد الأعشى ميمون(١٣) ٠

---

(١٠) طبقات الشعراء ٢٠٣/١ ٠

(١١) شرح المقامات للشريينى ٢٣٣ ، أعلام النساء / عمر رضا كحالة ٣٠٦/١ وما بعدها ٠

(١٢) الاستيعاب ١٨٢٧ ٠

(١٣) تاريخ التراث العربى / فؤاد سزكين ص ٣٥٢ نقلا عن الشعر والشعراء ٠

وقيل غير ذلك كثير ...

الخنساء والرثاء :

رثاء المرأة يختلف عن رثاء الرجل : فالنساء (أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهم جزعا على هالك ، لما ركب الله فى طبعهن من الخور وضعف العزيمة)(١٤) .

ويقول بروكلمان(١٥) :

لعل المرثية الشعرية نشأت نشأتها الأولى من ندب النوائح المجرد من القوالب ، ولهذا غلب تعهده بعد ذلك على النساء . وقد بلغت (الخنساء) فى ذلك أقصى مراتب الشهرة .

ويقول الرافعى(١٦) :

ولا يهولنك كثرة أسماء النساء اللاتى قلن شعرا ، فعمود الشعر عندهن الرثاء ، وليس لهن إلا المقاطيع والأبيات القليلة ، ولم تبن منهن إلا الخنساء وليلى الأخيلية ، وما شعرت الخنساء حتى كثرت مصائبها ، فأجادت وأطالت .

ولم يأت فى شعر النساء خاصة أفحل ولا أجزل من شعر الخنساء، كأن فقد رجالها جعلها رجلا .

ويقول المستشرق غوستاف فون غرنباوم(١٧) :

إن هذا الفن إنما بلغ أوجه فى مراثى الخنساء الشاعرة .

وديوان الخنساء - إلا قله - فى الرثاء ، وجل رثائها لصخر وهو أخ غير شقيق ، فى حين أن أخاها الشقيق (معاوية) لم يظفر إلا بالقليل .

ومن عيون مراثيها رائعتها الرائية فى صخر :

---

(١٤) العمدة لابن رشيق ١٢٣/٢ ، ط الاتحاد الأخوى .
(١٥) تاريخ الأدب العربى ١١٤/١ .
(١٦) تاريخ آداب العرب ٦١/٣ ، ط الاستقامة .
(١٧) دراسات فى الأدب العربى ، ترجمة : إحسان عباس .

النص

قذى بعينك ام بالعين عوار ؟

ام ذرفت إذ خلت من أهلها الدار(١)

كان عينى لذكراه إذا خطرت

فيض يسيل على الخدين مدرار(٢)

تبكى لصخر هى العبرى وقد ولهت

ودونه من جديد الترب أستار(٣)

تبكى خناس فما تنفك ما عمرت

لها عليه رنين وهى مفتار(٤)

---

(١) رواية البيت فى ديوانها بتحقيق د٠ عوضين هكذا :

ما هاج حزنك ام ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

أم ذرفت أم ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

قذى : يقال : قذيت العين تقذى إذا سقط فيها القذى ٠ العوار: وجع فى العين كالقذى من الرمد ٠٠ ذرفت : أى أمطرت مطرا متتابعا لا يبلغ أن يكون سيلا ٠

(٢) **فى العقد : كأن دمعى ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠**

(٣) العبرى : التى لا تجف عينها من الدموع ، وقيل لها عبرى لهملان دموعها ٠ ولهت : الوله : ما يصيب الرجل والمرأة من شدة الجزع عند المصيبة ٠ والواله : التى قد شفها الحزن على ولدها ، والواله – أيضا – المشتاق ٠ جديد التراب : ما أثير من باطن الأرض ٠ أستار : اللبن ستر ، والتراب ستر ، وما يتبعه ستر ٠

(٤) الرنين : البكاء ٠ المفتار : التى أصابها فترة ، أى ضعف وانكسار٠

تبكى خناس علـى صـخر وحق لهـا
إذ رابهـا الدهـر ، إن الدهـر ضرار(٥)

لابـد مـن ميتـة فى صـرفها عـبر
والدهـر فى صـرفه حول وأطـــوار(٦)

قد كان فيكم (أبو عمرو) يسـودكم
نعـم المعمـم للداعـين نصـــار(٧)

صلب النحـيزة ، وهاب إذا منعـوا
وفى الحروب جرئ الصـدر مهصـار(٨)

يـا صـــخر وراد مـاء قـد تنـاذره
اهـل المـوارد مـا فى ورده عــار(٩)

---

(٥) فى العقد : فالعين تبكى على صخر وحق لهاـــمـ
(٦) فى بعض الروايات :

. . . . في صرفها غير

. . . .

عبر : أى اعتبار .
حول : أى تحول وتصرف وتقلب واختلاف ، أى يتقلب اختلافا وذلك لاختلاف الأيام .
أطوار : حالات : أى طورا كذا وطورا كذا .
(٧) أبو عمرو : إحدى كنى صخر . المعمم : المسود ، عمم الأمر : قلده فيصدر عن رأيه .
(٨) النحيزة : الطبيعة . مهصار : أى يدق الأعناق .
(٩) وراد ماء : كثير ورود الماء . ويقال : الماء هنا : الموت وقالت : وراد ماء كناية عن شجاعته وإقدامه وأنه لا يهاب الموت . تناذره: أنذر بعضهم بعضا هوله وصعوبته . ما فى ورده عار : أى ما فى ترك ورده عار . أى ليس يعير أحد أن يعجز عنه من صعوبة وروده.

مشى السبنتى إلى هيجاء معضلة

له سلاحان ، أنياب وأظفار(١٠)

وما عجول على بو تطيف به

لها حنينان : إعلان وإسرار(١١)

---

(١٠) فى رواية ٠

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ معظلة

السبنتى : هو كل سبع من أسد وديب ونمر ٠ والسبنتى : هو الطويل الجرىء من كل شىء ٠ والمعظلة والمعضلة : الشديدة ٠

(١١) فى العقد :

بكاء والهة ضلت اليفتها

لها حنينان : إصغار وإكبار

العجول : الناقة التى يموت ولدها وهو صغير ٠ البو : أن ينخر ولد الناقة ويحشى جلده ثماما أو غيره من الشجر ، ويدنى من أمه فترأمه ٠

وقال أبو عبيدة : العجول والخلوج والسلوب والواله : مثل الفاقد، قال : والبو : جلد ولد الناقة الذى تبوئه فتحشوه تماما فتدر عليه٠ قال : وأما الجلد - مفتوح اللام - فهو جلد السقب المبسوط الذى لم يحش كقول دريد بن الصمة :

وكنت كذات البو ريعت فاقبلت

إلى جلد من مسك سقب مقدد

وقوم يجعلون الجلد ، والبو ، والرأم سواء ٠

(١٢) ترتــع مــا رتعت حــتى إذا ادكرت
فإنمــا هى : إقبـــال وإدبـــار

(١٣) لا تسمن الدهر فى أرض وإن رتعت
فإنمــا هى : تحنـــان وتســـجار

(١٤) يومــا باوجــد مــنى يــوم فارقــنى
صـــخر ، وللدهــر إحــلاء وإمــرار

---

(١٢) يروى :

. . . .

فإنمــا هــو . . . .

أى كانما فعلها إقبال وإبار . وفى العقــد :

ترعى إذا نسيت حتى إذا ادكرت
فإنمـــا هـــى إقبـــال وإدبـــار

وترتع : أى ترعى .

(١٣) روى :

. . . . وإن ربعــت

أى أصابها مطر الربيع ، يقال : ربعت الأرض فهى مربوعة، وقد وسمت من الوسمى فهى موســومة وهو أول مطــر الربيع .
تحنان وتسـجار : يقال : حنت الناقة إذا طـربت فى إثـر ولدها فإذا مدت الحنين وطربت قيل : سجرت .

(١٤) يروى :

يومــا باوجــع منى . . . .

ويروى : يومــا بافجع منى ...

أوجد : أى أحزن . يقال : ما أحلى فلان وما أمر : أى ما أتى بحلــو ولا بمر .

(١٥) وإن صـخر لوالينـا وسـيدنا
وإن صـخرا إذا نشـتو لنحـار
(١٦) وإن صـخرا لمقـدام إذا ركبـوا
وإن صـخرا إذا جاعـوا لعقـار
(١٧) وإن صـخرا لتاتـم الهـداة بـه
كانـه علـم فى راسـه نـار
(١٨) جلد ، جميل المحيا ، كامل ، ورع
وللحـروب غـداة الـروع مسـعار
(١٩) حمال الـوية ، هبـاط أوديـة
شـهاد أنـدية ، للجيش جـرار

---

(١٥) يروى :
• • • • • • • لكافينـا وسـيدنا
ويروى :
• • • • • • • لمـولانا وسـيدنا
نشتو : أى حينما يشتد الزمان والبرد •
(١٧) يروى :
اغـر ، أبلـج ، تاتـم الهـداة بـه
• • • • • • • • • • • •
والأغر : المشهور • والأبلج : البعيد ما بين الحاجبين ، وهو من ليس بأقرن وهـذا مما يمدح به الرجل • والعلم : الجبل •
(١٨) يروى فى تاج العروس :
جلد ، جميل ، مخيل ، بارع ، ذرع
وفى الحـروب إذا لاقيت مسـعار
والذرع : الحسن العشرة والمخالطة •
(١٩) رواية البيت فى الصناعتين هكـذا :
جـواب قاصـية ، جـزاز ناصـية
عقـاد الـويه ، للخيـل جـرار

(٢٠) فقلت لما رأيت الدهر ليس له

معاتب ، وحده يسدى ونيار

---

(٢٠) قولها : (وحده يسدى ونيار) فى اللسان : أنشد شعر (للكميت) :

فما تأتوا يكن حسنا جميلا

وما تسدوا لمكرمة تنيروا

يقول : إذا فعلتم أمرا أبرمتموه ... وقال الشاعر :

إذا أنا أسديت السداة فالحما

ونيرا فإنى سوف أكفيكما الدما .. (أهـ)

وبذلك يتضح أن العرب يقرنون بين الإسداء والانارة والمعنى : أن حكمه نافذ مبرم لاراد له .

وفى مادة (نير) أنشد للزفيان :

ومنهل طام عليه الغلفق

ينير أو يسدى به الخدرنق

وقال بعض الأغفال :

تقسم استيالها بنير

وتضرب الناقوس وسط الدير

قال : النير : القصب والخيوط إذا اجتمعت ، والنير : العلم .. والمعنى على ذلك : أن الدهر يعلو بحده ، ويخط ما يخط ، فيفعل بالناس فعل الحائك الذى يسدى الثوب - : أى ينسجه - ويترك بفعله هذا أثرا بارزا وعلامة واضحة ظاهرة كالنير وهو : العلم فى الثوب ، أو كسنام البعير : ففى اللسان : ناقة ذات نيرين : إذا حملت شحما على شحم كان قبل ذلك وأصل هذا من قولهم : ثوب ذو نيرين : إذا نسج على خيطين ، وقيل هو بالفارسية (دوياف) .. أى (الكنار) فى طرف الثوب .. والنير : الواضح من كل شىء .

(٢١) لقـد نعى (ابن نهيك) لى اخـائقة
كانـت ترجـم عنـه قبل اخبـار

(٢٢) فبـت سـاهرة للنجـــم ارقبـــه
حتى أتى دون غور النجم أسـتار

(٢٣) لـــم تره جـارة يمشى بسـاحتها
لريبـة حـين يخلى بيتـــه الجــار

(٢٤) ولا تراه وما فى البيـت ياكلـه
لكنـــه بـارز الصـــحن مهمـــار

(٢٥) ومطعم القوم شحما عند مسغبهم
وفى الجـدوب كريم الجد ميسـار

(٢٦) قد كان خالصتى من كـل ذى نسـب
فقـد أصـيب فمـا للعيش أوطـار

---

(٢١) ابن نهيك : من بنى سـليم وهو الذى نعى الى الخنساء مـوت صخـر .

(٢٢) أرقبه : أترقبه متى يصبح لعل لى فى ذلك فرجا . غور النجم : سـقوطه .

(٢٤) مهمـار : مكثار يكثر لأضيافه من القرى .

(٢٥) مسغبهم : أى جوعهم .

(٢٦) خالصتى : أى الذى اخترته لنفسى وخاص لى وده . أوطار : جمـع وطر . والوطر فى العيش : أى ليس بعده فى العيش جـدة .

(٢٧) مثـل الردينى لم تنفـد شـبيبته

كانـه تحت طى البـرد أسـوار

(٢٨) جهم المحيا ، تضىء الليل صورته

آباؤه من طـوال السـمك أحـرار

---

(٢٧) فى رواية :

. . . . لـم تـدنس شـبيبته

. . . .

ويروى :

. . . . سـنينته

. . . .

الردينى : الرمح منسوب الى ردينة ، امرأة كانت تقوم الرماح . اسوار : أى كانه إسـوار من لطافة بطنه وهيفـه . والإسوار ـ بالكسر فى اللسان ـ وبالضم فى القاموس ـ : لغة فى السوار .. تقول هو لطيف كأنه إسـوار أى قليـل اللحم كانه أسـوار من ذهب أو فضة فى حسـنه وضمره . وقيـل : المعنى : كأنه حين ائتزر ببرده فطواه عليـه محتبكا لأن المؤتزر يطوى حـواشى ازاره بحقوه . والسنينة : الحديدة التى فى رأس الرمح .

(٢٨) الجهم والجهيم من الوجوه : الغليظ المجتمع فى سماجة . . . وجهمت الرجل وتجهمته : اذا كلحت فى وجهه . ويبدو أنهـا تريد أن تقول إنه ممتلىء الوجـه ، مهيب الجانب ، ثم استدركت خـوفا من أن يظن أنه مهيب لسماجة وقبح فقالت : تضىء الليل صورته .. أى هو مثل البدر .. فالجهم هنا هو الوجه الممتلىء ويتناسب مع الطول والضخامة . السمك : القـامة من كل شىء بعيد طويل السمك .

(٢٩) مورث المجـــد ، ميمـــون نقيبتـــه

ضـخم الاسـيعة فى العـــزاء مغـوار

(٣٠) فـــرع لفـــرع كـريم غير مؤتشـب

جلد المـريرة عنـد الجمـع فخـــار

(٣١) فى جـوف لحـد مقيـم قـد تضمنـه

فى رمســـه مقمطـــرات واحجـار

(٣٢) طلق اليدين لفعـل الخيـر ذو فجـر

ضـخم الاســيعة بالخيـرات امـــار

(٣٣) ليبـكه مقـــتر افـنى حـريبتـــه

دهـــر وحـالفــه بـؤس وإقتـــــار

---

(٢٩) مورث المجد : أى قد ورث الشـرف • ضخم الدسيعة : أى عظيم الخلـق • والدسيع : الخلق العظيم الشريف وأصـل ذلك : من دسـع البعير بجرته إذا أفاض بها • والدسيعة : العطية •

(٣٠) فـرع لفـرع : أى رأس لرأس • المؤتشب : المخلوط الحسب • المـريرة : إبرام الرأى •

(٣١) روى البيت هكذا :

فى جـوف رمـس • • • • •

والرمس : القبر • والروامس : الرياح الدوافن التى تدفن الآثار والمعالم • مقمطرات : قال ابن الأعرابى : دواه • وقال أبو عمرو: صخور عظام • وقيـل : المقمطرات : الأكفان •

(٣٢) طلق اليدين : أى مطلق اليدين بالخير • ذو فجر : أى ينفجـر بالمعـروف •

(٣٣) الحريبة : مال الرجـل الذى يعيش به ويقوم به أمـره • وقيـل : لا يسمى حريبة : الا اذا سلب•

(٣٤) ورفقـــة حـــار هـــاديهم بمهلـــكة
كـــان ظلمتهـــا فى الطخيـــة القـــار

(٣٥) لا يمنـــع القـــوم إن ســـالوه خلعتـــه
ولا يجـــاوزه بالليـــــل مـــــرار

* * *

(٣٤) يقال رفقـة ورفقـة ، ويقال : مهلـكة ومهلكة ، والطخية من الطخـاء وهو الغيم الرقيـق أى : وارى الليـل النجوم والغيم فاشتدت الظلمـة وتحير الهادى . وقال أبو عبيدة : يقال ما فى السماء طخاء : أى ظلمـة قال : وجاء فى الحديث : « إذا وجد أحدكم طخاء على قلبـه فلياكل سفـرجلا » ـ قال محقق الديوان: لم اقف على هذا الحديث وقد ذكـره صاحب اللسان فى مـادة (طخـا) .

المنـاسبــة :

قال أبو عبيــدة :

غــزا صخر بن عمرو ، وأنس بن عباس الرعلى - من بنى سليم - بنى أسد بن خزيمة فى بنى عـوف وبنى خفاف - وكانا متسـاندين - : (صخر) على بنى خفاف ، و (أنس) على بنى عوف ، فاكتسحـا أمــوال بنى أسد ، وسبيا ، ومضيا .

فاتى الصريخ بنى أسد ، فتبعوهم حتى لقوهم بـ (ذات الأثل)، فاقتتلوا قتـالا شديدا ، وطعن ربيعـة بن ثور الأسدى صخرا فى جنبه ، فأدخــل جوفه حلقـا من الدرع ، وجوى (صخر) من الطعنة ، فكان مريضـا قريبا من الحول حتى مله أهله ، فسمع امــرأة من جـاراته تسـأل (سلمى) امــرأته : كيف بعلك ؟

قالت : لا حى فيرجى ، ولا ميت فينسى . لقد لقينـا من الأمرين .
فســألت أمــه عنه فقالت : أرجو له العافية إن شاء الله .
فقال فى ذلك(١) :

أرى أم صخـــر لا تمــــل عيـــادتى
وملــت سليمــى مضجعـــى ومـــكانى
فــأى امـــرىء ســــاوى بام حليـــلة
فــلا عـــاش إلا فى شقـــا وهـــــوان

---

(١) العقد الفريد ٣١/٦ ، الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطى ٥٦ ، الأغانى ١٣٦/١٣ وما بعدها ، الكامل لابن الأثير ٣٦٨/١ ، مجمع الأمثــال ٩٦/٣ ، ٤٤٢/٢ ، نهـــاية الأرب ٣٦٨/٥ ، معجـــم ما استعجم للبكرى (ذات الأثل) .

وما كنت أخشى أن أكون جنازة
عليك ومن يغتر بالحدثان
لعمرى لقد نبهت من كان نائما
وأسمعت من كانت له أذنان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه
وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال عليه البلاء ، وقد نتأت قطعة من جنبه مثل اليد فى موضع الطعنة ، قالوا له : لو قطعتها لرجونا أن تبرأ . فقال : شأنكم ! فقطعوها فمات .

وبموته تفجرت شاعرية أخته (الخنساء) حزنا عليه على الرغم من أنه أخ غير شقيق ، إلا أنه حظى بالغالب الأعظم من شعرها ، فى حين أن أخاها الشقيق (معاوية) لم يحظ إلا بالقليل . ولعلها وجدت منه شفقة ورفقا لم تجدهما فى الشقيق بدليل قسمة ماله مرتين وإعطائها الشطر الأجود .

* * *

التحليل والشرح

تبدأ القصيدة بتساؤلات تنبىء عن حيرة الشاعرة وقلقها ـ فهى لا تعرف سبب بكائها . أهو لقذى فى العين ؟ أم لعوار بها ؟ أم لخلو الدار من أهلها ؟

وتأتى الإجابة فى البيت الثانى لتبين أن البكاء كان بسبب خطور ذكرى صخر ، هذا الخطور الذى يحيل عين الخنساء (فيضا)

(يسيل) (مدرارا) بهذه الألفـاظ التى تدل على الديمومة والتكرار والاستمـرار(٢) ..

نعم : إنها دموع مستمرة الهطول ، دائمـة .

ولقد صـارت عينها التى كانت أداة إبصار (هى العبـرى) أى الدامعـة الباكية على الدوام . ولم لا (وقد ولهت) إذ حال بينها وبين رؤية صخر أستار من جـديد الترب ؟؟

وهذا التراب جديد ليس لأنه غطى به قبر جديد . وإنما لأنه تراب قبر صخر .. ومن (صخر) ؟؟ إنه ميت فـريد ، فذ ، نادر ، لا مثيل له - فى نظـر (الخنسـاء) - فلابد أن يكـون التراب كـذلك أيضـا (جـديدا) .

والجمـع فى (أستار) يكشف عن مدى الفجيعـة التى تحس بها الشـاعرة ، فليس سـترا واحدا حـال بينهـا وبين أخيهـا إنمـا هى (أستار) انقطـع معها الأمـل وخاب الرجاء .

ولذلك فهى تديم البـكاء :

تبـكى خنـاس فمـا تنفـك ما عمـرت
لهـا عليــــه رنــين وهى مفتـــــار

وهنا كشفت عن أن العين البـاكية هى عين (الخنسـاء) . . وستظل باكيـة طوال عمـرها ، صـارخة ، نائحـة ، على الرغم من إصـابتها بضعف وانكسار .

---

(٢) ذهب الدكتور الحينى إلى أن المعنى : ماذا دهاك أيتها المـرأة فلا تبكين ؟ أوحجب البكاء قذى أغلق العين فاستحال نزول الدموع؟ أم راعتك الوحشة وحدك والبيت خلو ليس فيه سـواك .. الـخ الخنسـاء : ص ١٥٨ .

وكيف لا تبكى ؟ وكيف لا تصاب بضعف وفتور ، والمبكى هو (صخر) الذى أصابها فيه الدهر ؟؟

وقالت (رابها الدهر) ولم تقل (رابنا الدهر) كأن الدهر اختص (الخنساء) ، وقصد إليها قصدا ، بكل ما يفعله . وإذا كان الدهر قد رابها فانه له يكتف بذلك ، وإنما أضر بها ضررا شديدا بالغا .. وهذا غير مستغرب ، لأن هذه هى طبيعة الدهر (إن الدهر ضرار) هكذا بصيغة المبالغة التى توحى بالكثرة والتكرار .

« وما دام الدهر فى حقيقته ضرارا ، فإنه لابد أن يكون دهر الصروف والأحوال والأطوار . وإن لب ما يقدمه الدهر للأحياء من صروفه هو : الموت . ولكن الدهر يختص (الخنساء) وقومها بميتة فريدة ، (ميتة فى صرفها عبر) جاء لفظها مفردا نكرة ، فكأنها (درة الدهر اليتيمة) : الميت فيها حى لا يموت ..

نعم ، إنها ميتة فى صرفها (عبر) أى عجائب ، وأى عجائب ! إنها لعجائب منكرة ، تتجلى فيها أطوار الدهر وتحولاته التى استبدت بالبيت وسيطرت عليه »(٣) .

وهكذا كان ختم الخنساء لهذا المقطع بتلك الحكمة التى استوحتها من آلامها وأحزانها فى الأبيات السابقة .

ومن فعل الدهر أنه جعل (صخرا) فى خبر (كان) ، وصار يعبر عنه بهذا الفعل الذى يدل على الماضى ، مما يستدعى التحسر والتألم على هذا الذى (كان) .. فماذا كان ؟

---

(٣) مجلة فصول ـ العددان (١،٢) المجلد الثامن ـ محمد صديق غيث ص ٨٧ .

قد كان فيكـم (أبو عمرو) يســودكم

نعـم المعمــم للداعـــين نصــــــار

وقولها (فيكم) تجعـل (صخرا) حاضرا فى القوم ، متوحدا بهم ، وتكرس وجـوده فى الجماعة المخاطبة الحاضرة الباقية ، وترسخ فيهـم ، وداخلهم وباطنهم ، وهـم على ما هم عليـه منـاط الـدوام والاستمـرار والتحقق(٤) .

« وقد اكتملت لصخر بالكنية ، والفعـل المضارع ، واسم المفعول ، (أبو عمـرو - يسودكم - نعم المعمم) صياغته الاجتماعية ، ووجـوده الشخصى المتكامل ، حين اندمجت ذاته فى الآخـرين ، فلم تعد بلا أبعاد أو وظيفـة أو غـاية »(٥) .

لقد كان سيد قـومه معمما ، نصبوه رئيسـا لهم ، يؤملون فيـه كل الخير للقبيـلة ، وقد أعطاهم ما أرادوا (للداعين نصار) ..

وكيف لا يسوده قـومه وهو المؤهـل لتلك السيادة والقيـادة !! لقد كان :

صلب النحــيزة ، وهــاب إذا منعـوا

وفى الحروب جـرىء الصــدر مهصــار

لقد كان ذا طبيعـة قوية ، وجسم صلب ، يكثر البذل حينما يعز على النـاس العطـاء (وهاب) ، وقد كان متميزا متفـردا فى هـذه وفى غيرها ففى حين يجبن الآخـرون عن الحـروب فإن (صخـرا) يكون (جـرىء الصدر) ويكثر دق رقاب الأعداء ، وليس ذلك مـرة ولا مـرات فحسب إنما هو (مهصـار) بصيغة المبـالغة .

---

(٤) نفسـه (بتصرف وإيجاز) ص ٨٨ .

(٥) نفسـه .

ويتميز صخر وينفـرد عن الآخـرين فى أنه :

• • • وراد مـاء قد تنـاذره

أهـل المـوارد مـا فى ورده عـار

إن صخرا يرد مـوارد المـوت ، وهذا الورود متكـرر (وراد) بلا توقف ولا انقطاع ٠٠ وهـذه المـوارد قد أنذر (أهـل المـوارد) بعضهم بعضـا من نزولها ٠

تأمل قولها (أهل الموارد) فقد أضيفت (أهـل) إلى (الموارد) لتبين أن هـؤلاء الخائفين الحذرين اعتـادوا ورود المـوارد فصـاروا أهلهـا ، تخصصوا فى ذلك ، وكأنها صـارت حرفتهم ومع ذلك يخشون نزول هذه المـوارد ٠٠ هذا يبين قدر المخـاطرة التى يقدم عليهـا من يرد هذه الميـاه ٠٠

ولا يردها غير (صخـر) ، وهو لا يردها مـرة أو مرات ، وإنما كثير نزولها (وراد ماء) ٠٠ إن (صخـرا) بذلك نسيج وحـده ، متميز ، متفـرِّد ، فلا يخشى ما خشيه هـؤلاء ، بل يخاطـر فيما لم يجرؤوا هم عليـه ٠٠

و (صخـر) وهو يرد هذا المـاء لا يكون حذرا ، أو خائفا هيابا، بل إنه يمشى إليـه مشى النمـر الجـرىء ، غير آبه بالعواقب ٠٠

أرأيت كيف كانت شجـاعة (صخـر) وجـرأته وإقـدامه ؟؟ يحجم أهـل المـوارد فإذا بصخر يتقدم كالنمـر الجرىء ، مطمئنـا ، واثقـا ، معه سلاحان (أنياب وأظفار) ٠

لقد استطاعت الشاعرة إبراز مدى شجاعة أخيها بهذه المقارنة بين أهـل المـوارد وإحجامهم ، وصخر وإقدامه وعدم مبالاته بالمخـاطر ، بل وبولوعه ورود مثـل هذا المـاء ، الذى لا يلام ولن يعير العاجز عن الوصول إلى مثـله نظـرا لصعوبة وروده ٠

والأبيات فى هذا الجـزء من القصيدة « يرتبط التـالى مع سابقه من إطارة الذى يتضمن الصورة ، ونجد صورها الشعرية وإن كانت كل واحدة مستقلة فإنه ينظمهـا عقد تصور الشـاعرة فخـرجت بنوع من الترابط ، بحيث لو حاولنـا أن نغير من نظامها لأحسسنا باضطراب فى تسلسل الصـور ، وللاحظنا أن النظام المرسوم لها قد اختلف أمـره ، وهذه ميزة فنية تسجل للخنساء فى هذا الجـزء من القصيدة (٦) ·

وفى هذا المقطـع (الثـانى) صـورة رائعة فاقت مثيلاتها من صـور شعراء جاهليين ومخضرمين (٧) ·

أرادت الخنساء أن ترينـا مدى حزنها على فقد أخيها (صخر)، فاختارت من البيئـة ما تقارن حزنها بحزنه ·· فقالت :

ومـا عجـــول على بو تطيـف بـه
لهـا حنينـــان : إعـــلان واســـرار

ترتـع مـا رتعت حتى إذا ادكـــرت
فإنمـــا هـى : إقبـــال وإدبـــار

لا تسمن الدهـر فى أرض وإن رتعت
فإنمـــا هـى : تحنـان وتسـجار

يومـا بأوجـد منى يـوم فارقنـى
صـخر ، وللدهـر إحـلاء وإمـرار

إن هـذه الناقة يكـاد يقتلها الحزن لفقـد وليدها ··

وإنها لنـاقة (عجول) مسلوبة ، لا هدى فى حـركتها ، وإنما

---

(٦) الخنســاء للدكتور الحينى : ص ١٦٢ ·

(٧) راجع الموازنة بين هـذه الصورة وشبيهاتها فى قصيدة (دريد بن الصمة) السـابقة ·

هى متعجلة متلهفة على ولدها (البو) وهو ولد النـاقة الذى يذبح ، ويؤخذ جلده ليحشى بالقش والحطب ، ثم يوضـع أمام أمه ، فتشمه ، فيـدر لبنهـا ٠٠

وحيرة تلك النـاقة الأم وعجلتها إنما جاءت من جـراء رؤيتها لابنها ، وشمها له ، فتجد فيـه رائحته إلا أنها حين تقترب منه تجده ميتـا ، فتزداد حيرتها ولوعتها وأسـاها ٠ ومع ذلك تنظـر فتجـده فى ذلك الجلد ، فتعود إليـه وتبوء بالخيبـة واليـأس ـ بعد أن در لبنهـا ـ وعاد صوتها ونداؤها دون أن تجد جوابا ٠

وكلمـا تعاود الحنين والتطواف حوله ، والنداء له ، والشم فيـه فلم يكن لذلك من سميـع لهـا تزداد وتتصـاعد الحيرة ، والقلـق ، والاضطراب ، والسـرعة ، والإقبـال ، والإدبار ، والأمل ، واليأس ٠٠ وهكذا دواليك ٠

« ومهما أقبلت الأم (العجـول) أو أدبرت ، لا يقر لها قـرار ، ولا يتحقق لهـا يقين ، ولا يكتمل إدراك ، بل تتنازعها كل التصورات ، وتحاصرها كل الاحتمالات ، ذلك بأن (البو) صـورة مركبة محيرة ، بالغـة الإيحـاء والتعقيد ، تثير قوى الشعور والإدراك كافة ، وتهزها هـزا ، وتعرضها لمثـيرات تتسـم بكثـير من التداخـل والاضطـراب والغمـوض »(٨) ٠

إن هذه النـاقة « تظهـر حزنها على صورتين : إحداهما ترجيـع الحنين فى صوت خفيض ، والأخرى : ترجيعـه فى صوت عال ٠٠»(٩)

وأم كهذه لم تقـر عينهـا برؤية ولدها ، وفلذة كبدها ٠٠ هـل يجدى معها طعام مهما كان نوعه ؟

---

(٨) محمد صديق غيث : مجلة فصول (مرجع سابق) ص ٨٢ ٠

(٩) الخنسـاء شاعرة بنى سليم : ص ١٦٣ ٠

كلا ٠٠ إنها مهمومة محزونة ٠٠ فكيف تستسيغ الطعام !!

أرأيت هذه الناقة على ما هى فيه من هم دائم ، وحزن كثيف، ومرارة بالغة ؟؟

إنها ليست أشد حزنا وألما وحسرة من (الخنساء) التى فقدت (صخرا) ٠٠

لقد برعت (الخنساء) براعة فائقة فى الغوص داخل هذه الناقة لتكشف لنا عن مشاعرها وعواطفها وتحللها لنا بتلك الدقة المتناهية ٠

وتختم حديثها عن حزنها قائلة :

. . . .

. . . وللدهر إحلاء وإمرار

وقد ذهب أحد النقاد المحدثين إلى أن (الخنساء) أضعفت الصورة بالجملة الأخيرة التى وصفت بها الدهر بانه متقلب ، يصفو فيكون حلوا ، ويعتكر فيكون مرا ، ومن الواضح أن هذه الجملة (وللدهر إحلاء وإمرار) ضعيفة الصلة بالصورة الشعرية ، ومن ثم فإن الضرورة هى التى اضطرت الشاعرة إليها لتكمل المصراع الثانى فى البيت فأفسدت جانبا من جمال الصورة ، وهذا خطأ لا يغتفر للخنساء »(١٠) أ٠ هـ ٠

وأنا لا أوافقه على ذلك ٠

فلو رجعنا إلى نهاية المقطع الأول لوجدناه :

. . . .

والدهر فى صرفه حول واطوار

---

(١٠) المرجع السابق ٠

وربطت بينه وبين ما تلاه بقولها (قد كان) والدهــر هو الذى تسبب فى ذلك واضطرها الى الحديث عنــه بصيغة المــاضى (كان) . ثم أخذت فى نعتــه ، وبينت مدى حزنها فى المقطــع الثالث عن طريق (البو) ، وختمت المقطــع بقولها :

. . . .

. . . وللدهــر إحــلاء وإمــرار

ممــا يدل على أن فعــل الدهــر بها لا يزال فى ذهنهــا طــوال القصيدة ، وكيف لا وهو مسبب حــزنها ـ كما كان هو نفســه سببا فى حــزن النــاقة ؟؟ ثم إن الشطرة الأولى :

يومــا بأوجــد مــنى يــوم فــارقنى

صخــر . . . .

مســوغ لتلك الجمــلة :

. . . .

. . . وللدهــر إحــلاء وإمــرار

لأن سبب الفــراق هو المصيبة التى أنزلها الدهــر ، ذلك الدهــر الذى من طبعــه تلك المفــارقات المتناقضات .. ألم يكن (صخــر) بالأمس بيننا هو سبب سعدنا ، ومبعث فخرنا وتيهنا !! ها هو قد صار سبب حــزننا .

ومن هنا فإننى أرى : أن الخنســاء وفقت كل التوفيق فى ختم المقطــع بهذه الجمــلة التى لها علاقات قــوية بالمقطعين الســابقين ، وهى ركن فى المقطــع الأخير .

ويأتى المقطــع الثــالث فى القصيدة له عــلاقة قــوية بالمقطــع

السابق .. كأن سائلا يسأل ، أو شخصا ينكر أن يكون كل هذا الحزن على ميت ، فتجيب الخنساء على سؤال المتسائل ، وتبرز أمام المنكر صورة لحياة (صخر) ، وكأنها تقول :

أوليست هذه مصيبة المصائب أن نصاب فى صخر !!

ومن هنا بدأت فى بيان صفاته ومكانته بين قومه .

فذكرت أنه كان سيد قومه ، وهو مغيثهم عند النوائب والكوارث ، وهو الشجاع الصنديد حين يركب القوم للغارة على الأعداء ، وإن للجواد الكريم الذى يكثر ذبح الذبائح عند جوع القوم .

لقد جمع (صخر) من الصفات ما جعله هداية للسارين فى الليل البهيم ، جاء ذلك فى بيت افتتن به القدماء ، وهو قولها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به

كأنه علم فى رأسه نار

تريد أن تقول : إن (صخرا) هاد للهداة ، وإمام للأئمة ، ودليل للأدلة فإذا ضل الهداة والأئمة والأدلة فإن صخرا لا يضل ، وكيف يضل وهو كالـ (علم فى رأسه نار) ؟ .. إنه كالجبل فى رسوخه ، وثباته ، وتمكنه ، وصلابته بحيث يحتمى به ويلجأ إليه ..

ولا تزال (الخنساء) تصف أخاها فتقول :

جلد ، جميل المحيا ، كامل ، ورع

وللحروب غداة الروع مسعار

حمال ألوية ، هباط أودية

شهاد أندية ، للجيش جرار

وبعض النقاد يرى أن الشاعرة لم تضف جديدا ذا غناء فى وصف صخر ، فقد سبق لها أن قالت عنه إنه (صلب النحيزة) وأنه

فى الحروب (جرىء الصدر مهصار) ، وأنه يرد الماء الذى يخشى غيره أن يرده ، وأنه مقدام ، وجاءت بصور شعرية وجمل تقريرية تعبر بها عن هذه المعانى ، ولكن الخاصة الفنية عند (الخنساء) أبت إلا أن تكرر المعانى بألفاظ أخرى ٠٠ نراها تقول :

إن صخرا - إلى جانب اتصافه بحسن الخلق - يمتاز بالصلابة، وبجمال المحيا ، واستواء الخلق ، واتصاف الرجال بجمال الصورة كان من المحاسن التى تذكر لهم ٠٠ فجمع (صخر) بذلك صفتى الحسن : الجمال والشجاعة (١١) أ٠ هـ ٠٠٠

ونحن لا نراه تكرارا ٠٠ وإنما أرادت (الخنساء) أن تثبت أن أخاها سيد للقبيلة ، وأن هذا السيد هو نفسه قائد القبيلة فى حروبها ، وأنه جمع صفتين قد لا تتوافران معا ، وهما : الجمال والشجاعة ٠ وكم من الشجعان افتقدوا صفة الجمال هذه كـ (عنترة وخفاف والسليك بن السلكة) وغيرهم ٠

أما (صخر) فجمع له الصفتان ، وهنا وصفته بأنه (مسعار للحروب) و (حمال الوية) ، (هباط أودية) ، (شهاد أندية) بصيغ المبالغة، وهذا يدل على كثرة حمله للألوية ، كناية عن أنه قاد قبيلته فى حروبها وهو صغير ، وأن زمام الحرب يكون بيده فهو المسعر لها وهو يحضر المجالس المهمة للقبيلة ، كل هذا يفعله صخر، فالقيادة المركزية للقبيلة كلها فى يده هو لا فى يد غيره ، هو المخطط والمنفذ والقائد ٠٠ الخ ٠

وهذا الاستخدام لصيغ المبالغة يتناسب مع قولها :

٠٠٠٠ تأتم الهـداة به   كأنه علم فى رأسه نار

---

(١١) الخنساء - شاعرة بنى سليم : ص ١٦٦ ٠

ثم تقـول :

فقلت لمـا رايـت الدهــــر ليس لــه

معـاتب وحـــده يســـدى ونيـــار

لقد نعـى (ابن نهيـك) لى اخـا ثقة

كانت ترجـم عنـه قبـل اخبـار

فبت ســاهرة للنجــم ارقبـــه

حتى اتى دون غــور النجـم أسـتار

إنها متألمـة مما أنزل بها الدهـر ولكن ماذا تفعل ؟ وماذا تقول ؟ لقد ظهـر الدهـر مـرة أخرى ، وقد ربطت حديثها عن الدهـر بالكلام السـابق عن طريق (الفـاء) .

تقـول : لقد افترس الدهـر رجـلا له كل هذه الصفات ، ولقـد اعتدت مثـل ذلك من الدهـر ، ، ومع كل ما فعـله الدهـر فإنه (ليس له معـاتب) فهو لا يستجيب لعتاب ، ولا يسمع لنداء ، « فيـه نوع من الإدانة الباكية تصـرخ بهـا (الخنسـاء) من وجـه ذلك الكائن الجـامد القـاسى »(١٢) .

وتعلو نغمـة الإدانة من (الخنسـاء) للدهـر حين تصفه بأنه صـانع المتناقضات بل هو صاحبها (وحده يسدى ونيـار) بما يحمـله هذا القول من مفـارقة التقـابل بين (يسدى ونيار) التى تجعله كائنا جبـارا ، طاغيا ، يعبث بمصـائر بنى الإنسـان .. وقولها (وحده) يوحى بتفـرده واستبداده ، وانه سـادر فى جبروته ، وهو (وحده)

---

(١٢) مجلة فصول : ص ٩٨ ، مرجع سابق .. وإلحاح الخنساء فى شعرها بإلقـاء اللوم على (الدهـر) قد يوحى بأن قومها كانوا يقولون فى جاهليتهم (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) .

ذو النقض والإمــرار والابرام(١٣) ٠

لقد كان (صخـر) ينسج للقبيـلة مجدها ويشيده ، بينما الدهر ينسج له ــ فى خفـاء ــ نسجا آخـر ٠٠ إنه ينسج مصيبة عظمى للخنساء، وعلامة بارزة للحـزن كأنها مضاعفة ، بينة ظاهرة ٠

والدهـر مثـل الحائك الذى ينسج الثوب (يسديه) ويصنع فى ذيله ما يشبه (الكنار) حتى يكون واضحا ، وعلامة بارزة فى الثوب٠٠ كان موت (صخـر) ليس له مثيـل ، فكما أنه كان فى حياته (علما فى رأسـه نار) كذلك فقده مصيبة ليست ككل المصـائب ٠

ومن فعـل الدهر هذه المتناقضات ، فبالأمس كانت تأتينا الأخبار السـارة عن (صخر) وما يفعـله ويشيده من أمجاد للقبيلة ، يتناقلها النـاس هنا وهناك ٠

وبعض الشـراح يذهبون إلى أن المعنى : كنت أسمع الشائعات عن قتله فأتانى الخبر أقلقنى وأسهدنى ، ولم يغمض لى جفن(١٤) ٠

وما ذهبنا إليـه الحق بمعنى البيت قبله وبقولها : (وللدهـر إحـلاء وإمـرار) إذ أرادت أن تنسب المتناقضات للدهـر ، كما قالت فى قصيدة أخـرى عن صخر(١٥) :

ذاك الـذى كنـــا بـه　　نشفى المـراض من الجوانح
ويـرد بـــادرة العـدو　م　ونخـوة الشنـف المكاشح
فاصـــابنا ريب الزمــا　ن　فنـالنا منـه بفـاطح

---

(١٣) نفســه ، بتصـرف ٠

(١٤) الخنسـاء : د٠ الحينى ص ١٦٧ ٠

(١٥) الديوان : ص ٢٨ ، ٢٩ ٠

فكانما ام الزمـــا ن نحورنا بمدى الذبائح

جاء (ابن نهيك) بخبر موت صخر ، فاقض مضجعى ، وأسهدنى ، ولم يغمض لى جفن ، بل بت ساهرة أراقب (النجم) ..

ويبدو لى أن هنا ربطا بين أخيها وهذا (النجم) الذى سيغيب ، فها هو قد غاب (النجم) وحالت دونه الأستار ، تماما كما حالت دون (صخر) الأستار :

. . . .

ودونه من جديد الترب أستار

ثم إن النجم يهتدى به السائرون فى الليل البهيم ، و (صخر) كان كذلك جبلا فى رأسه نار يهتدى به قومه فى الملمات وحين تظلم بهم الأمور ..

« لقد انقطعت سلسلة الأخبار ، وإذا بالصمت والغموض يحلان محلها ، وتتراكم أستار الشك والمجهول ، وحينئذ لا يقنع الإنسان ولا يستكين ، بل يسعى جاهدا من أجل خبرها ، يتواصل به مع الحياة ، وتتواصل فيه الحياة ، ومن هنا تتجه (الخنساء) إلى النجوم ... تسألها أن تأتيها بخبر تستطلع فيه وجود (صخر) ، وتستجلى مصيره .. فتبيت حائرة مذهولة ، مترقبة ، متوجسة ، .. ولكن : ماذا بعد الانتظار والترقب ... إنه دوام الاحتجاب »(١٦) .

وأخذت (الخنساء) تصف سلوك أخيها الأخلاقى فى مجتمعه فقالت :

---

(١٦) مجلة فصول : ص ١٠٢ بتصرف وإيجاز .

لم تـره جـارة يمشـى بسـاحتها

لريبـة حين يخـلى بيتـه الجـار

لقد كان عفيفـا ، شريفا ، كريم الأخلاق ، لم ينتهز فرصة غياب زوج جارته ، ويتسلل إليهـا ..

إنه لم يفعـل فعـلا فيـه ريبة ، وأيضـا :

ولا تـراه ومـا فى البيـت يأكـله

لكنـه بـارز بالصحـن مهمـار

إنه لا يختفى عن الأعين حين الأكل ، خشية من أن يشاركه أحد ، وإنما يتناول طعامه بصحن داره ، وبذلك نفت عنه البخل نفيا قاطعا ،

وكيف يتوارى عن أعين النـاس بطعامه وهو الذى يطعم الناس فى مسغبتهم ؟ ثم إنه لا يطعمهم طعـاما جافا ، وإنما ينحـر لهم الإبل السمينة الممتلئـة شحما ..

ومطعم القـوم شحمـا عنـد مسغبهم

وفى الجـدوب كـريم الجـد ميسـار

واستخدام اسم الفاعل (مطعم) يدل على أن هذا الإطعام ممتد ، مستمر ، دائم ، لا ينقطـع ..

وهو (ميسـار) لا ينفد ماله ، ولا ينقطـع عطاؤه ، ولا يزول كرمه ، إنما يدوم ذلك كله دوام صيغة المبالغـة (ميسـار) .

« وتنهض قيم الضيافة والعطـاء والكرم ، فى هذا المقطع لتكون قمـة الفضائل التى تقابل كل الرذائل وتناهضها فى كل صورها ، التى تجسدت فى أسـوأ دركاتها من المشى إلى الجـارة لريبة . وحقـا : إن من يعطى القوم (عند مسغبهم ؛ وفى الجدوب) لا يأخذ من أعراضهم ،

ولا يسعى لضرهم وخيانتهم من وراء ظهورهم ، ضدان قابلت بينهما الأبيات ، لا يجتمعان عند العربى »(١٧) .

قد كان خالصتى من كل ذى نسب

فقد أصيب فما للعيش أوطار

لقد اختارته دون بقية أقاربها ، وجدت فيه الأخ الحانى ، والصديق الرفيق ، والحبيب الرقيق .. وكان هو يخلص لها كذلك .. هذا على الرغم من أنه أخوها غير الشقيق ، لكنها وجدت فيه هذه الصفات كلها .. وما دامت قد فقدت هؤلاء جميعا : الأخ والصديق فلا فائدة فى الحياة بعده ..

لقد كان (صخر) مثل الرمح ، قويا ، فتيا ، فى ريعان شبابه ، « ونضرة شبابه واستواء عوده يكشفان عن شخصه وكانه سوار من ذهب يخطف الأبصار .. »(١٨) .

وأما وجهه فيتميز بالتجهم الذى ينم عن شخصية محترمة ، لها قيمتها فى المجتمع ، فهو جاد وظهرت علامة جده على وجهه ..

وخوفا من أن يظن أن التجهم من قبح قالت :

. . . تضىء الليل صورته

. . . .

أى وجهه جميل ، كانه القمر يضىء الليل ، وهذا غير مستغرب فهو من آباء أحرار ، ورث منهم المجد والرفعة وسمو المنزلة :

مورث المجد ، ميمون نقيبته

ضخم الدسيعة فى العزاء مغوار

---

(١٧) فصول : ص ١٠٨ .

(١٨) الخنساء : د. الحينى : ص ١٧٠ .

كما أنه موفق ، مظفـر ، ميمون النقيبة ، يعطى العطاء العظيم ، وهو الذى يستصغر الصعاب ، ولا تستعصى عليـه الشدائد ..

وهذه أيضـا ورثها عن آبائه فهو :

فـــرع لفـــرع كـــريم غير مؤتشب
جلد المـــريرة عند الجمـع فخـار

هكذا كانت أصـوله ، وهو خالص النسب ، طيب الأرومة ، فيصدر فى كل ذلك عن طبع متأصـل فيـه ..

كل هذه الصفات والمكرمات والفضـائل :

فى جـــوف لحـد مقـيم قد تضمنـه
فى رمســه مقمطـــرات وأحجـــار

لقد ووريت كل هذه مع صخـر فى لحد ، استقر فيـه ، وأغلق ، ووضعت عليـه الصخور الصم الصلاب .

لقد غلت طلاقة اليدين فى هذا اللحد .. وحرى بأولئك الفقراء المحـاويج - الذين كانت تمتد إليهم يد صخـر - أن يبكوه ، وليبكه أولئـك المسرفون الذين بددوا أموالهم ..

وليبكه أولئـك الذين ضـلوا فى الفـلاة المهلكة ، وضل هاديهم وأظلمـت عليهم الدنيـا فتوقعوا هـلاكا لا مفـر منـه .. لأنهم كانوا يجدون ملجـاهم وملاذهم فى صخـر ..

إن (صخـرا) لم يكن ليـرد سـائلا ، كما أنه لا يمـر بـداره أحد من المـارة إلا وضيفه ..

* * *

مع الدراسـة الفنيـة

* بنـاء القصيـدة ·

(أ) مطلـع القصيـدة ·

حظيت مطالع (الخنساء) فى مرثياتها باهتمام كبير من النقاد ·· فذكـر بعضهم : أن معظم قصائدها ذوات مطـالع تقليدية(١٩)·· ولعـل (تقليدية) هنا أى أنها من تقليد وضعته (الخنساء) ·

ومطـالع (الخنسـاء) بكائية ، من أهم ما اتسمت به ظاهرة (التكرار) ، أو على الأقـل التشـابه ··

إذ نجد فى مطالعها خطابا لعينيها طالبة البكاء ، أو أن تجـود بالدمـوع ·

وتعلق الدكتور (بنت الشاطىء) على هذا التكرار قائلة :

« وفى هذه المـراثى المتـأخرة نراهـا تقلد نفسها ، وتدور فى حلقـة مفرغة ، مكررة الفـاظا ومعـانى لهـا سابقة ، ولا تكاد تنجو مرثيـة لهـا متأخـرة مـن اثـر التكلف ومعـاناة النظـم وإجهـاد القريحة ·· »(١٩) ·

ثم تقول فى موضـع آخـر :

« إن (الخنساء) قد ازدهاها إعجاب القوم بمراثيها ، واستمرأت طعم التغنى بأشجانها فراحت تنكأ جراحها عامدة ، وتجهد قريحتهـا لتسعفها بجديد من المـراثى فى (صخـر) بعد أن بعد به العهـد ، وتراخى الزمن ، والجـاها هذا إلى تكرار الفاظها ومعانيها ·· »(٢١)

---

(١٩) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية : د· عبد الحليم حنفى ·

(٢٠،٢١) الخنسـاء ، بنت الشاطىء : ص ١٢٢ ، ١٢٣ ·

وذهب الدكتـور (عبد الحليم حفنى) إلى أنه ليس صحيحا ولا منطقيا ولا متفقـا مع طبيعـة النـاس ولا مع طبيعة (الخنسـاء) نفسها .. أن تظـل حزينة على (صخـر) حتى تموت .

وإنما الصحيح : أن ظروف نشـأتها وبيئتها أثرت فى تكوينهـا فكانت معتزة كل الاعتزاز بالقبيـلة ، وقد رأت مجد القبيـلة يتهـاوى شيئا فشيئا ، وآخـر ما تهاوى منـه هو (صخـر) فكان لذلك صدمة عنيفة جعلتها ترى الدنيـا سوداء مظلمـة (٢٢) .

وذهب الدكتور (الحينى) إلى أن فن الرثاء فى الجاهلية كانت دائرته محدودة ، فكان على الشعراء أن يكرروا (٢٣) ..

أما الدكتور (محمد أبو موسى) فيرى : أن فى مطلع كل قصيدة للخنساء عينا منتحبة باكية ، والشاعرة تصرخ وتطلب المزيد من انهمار ماء الشجون لعله يبرد لظى القلب وحـر الفؤاد (٢٤) ..

وهكذا بدت الآراء متبـاينة .

ونحـن نـرى :

- أن (الخنسـاء) قد رسمت لمرثياتها خطا ، التزمته ، وجعلته تقليدا لهـا فكانت فيها جـرأة تحمد لهـا .
- أن (الخنسـاء) فى مطالع قصائدها كانت باكية فعلا ، وليس معنى إلحاحها فى طلب البكاء أنها غير حـزينة ، بل إنها تطلب فيضـا من الدمع ، وغزيرا منـه ..

---

(٢٢) مطلع القصيدة العربية .
(٢٣) الخنسـاء : ص ٢١٢ .
(٢٤) قـراءة فى الأدب القديم : ص ١٠٥ .

- أن فى قصرها البكاء على (صخر) دلالة على صدقها فى رثائها ، فهو أخ غير شقيق ، وفى ذلك لم تخرج عن المألوف أو تشذ ، فقد وجدت فى غير الشقيق صديقا حانيا برا رفيقا رحيما .. ولو أنها كانت تبكى مجد القبيلة فحسب لبكت أخاها الشقيق (معاوية) ..

(ب) الوحدة فى القصيدة :

تحققت فى القصيدة وحدة فكرية شعورية ـ أما عن ترتيب الأبيات، فيمكن أن نقدم ونؤخر ولا يعيب ذلك القصيدة أو يخل بالمعنى ـ

فمثلا حين تقول :

جلد ، جميل المحيا ، كامل ، ورع
وللحروب غداة الروع مسعار

حمال الوية ، هباط أودية
شهاد أندية ، للجيش جرار

نحار راغبة ، ملجاء طاغية
فكاك عانية ، للعظم جبار

يمكنك أن تقدم وتؤخر دون أن يختل البناء .

(ج) التضمين :

عد كثير من القدماء (التضمين) عيبا من عيوب الشعر . . . ولكن : ليس كل تضمين معيبا ، بل ان هناك كثيرا منه استحسنه النقاد واستجادوه ..

ومن هذا المستحسن قول الخنساء :

فما عجول على بو تطيف به
لها حنينان : اعلان واسرار

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت
فإنما هى إقبال وإدبار
لا تسمن الدهر فى أرض وإن رتعت
فإنما هى تحنان وتسجار
يوما بأوجد منى يوم فارقنى
صخر وللدهر إحلاء وإمرار

فانظر إلى هذه (المسافة) بين (فما عجول) و (يوما بأوجد منى) ..

ومع ذلك من ذا الذى يعيب هذا التضمين !! إنه غاية فى الحسن والروعة ، وذلك لأنه أتاح للشاعرة فرصة لتصف لنا هذه الناقة الثكلى العجول بما وصفت ، ولولا هذا التضمين ما حظينا بهذا الوصف البارع للناقة ..

*** الألفاظ والأساليب :**

من أبرز الظواهر فى القصيدة ظاهرة (التكرار) .. إذ نجد اسم (صخر) مثلا قد تكرر تسع مرات فى القصيدة .

« وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها ، فأكثر ما يقع التكرار فى الألفاظ دون المعانى . وهو فى المعانى دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه. ولا يجب للشاعر أن يكرر اسما إلا على جهة التشوق والاستعذاب ، إذا كان فى تغزل أو نسيب .. »(٢٥) .

---

(٢٥) العمدة : ٢/٩٥ .

والشاعرة تهدف من وراء التكرار الى تعظيم شأن المرثى ، فتكرر اسمه مع عد أفعـاله وانجازاته كما فى قولها :

وإن صخـــرا لمـولانا وسيدنـا ٠ ٠

وإن صخـرا ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ الخ

فهو تنويه بصخر ، وإشـادة بذكـره ، وتفخيم له فى القـلوب والأسماع ٠ فضلا عن تلذذها بذكـر اسم الفقيد ٠

كما نجد لفظ (الدهـر) قد تكرر عدة مـرات ، فهو الذى أنزل بالشاعرة ما أنزل ، انه هو الذى فجعها فى (صخـر) ، وهو الذى يهدم مجد القبيـلة الذى شـارك فى بنائه (صخـر) ٠٠ وهو الذى ـ مع ما يفعله وينزله بالناس ـ لا يعاتب ، وهو ٠٠ وهو ٠٠

وفى القصيدة من المحسنات البديعية : التتميم ، أو التكميل(٢٦)٠٠ وذلك فى قولهـا :

وإن صخـــرا لتـأتم الهـــداة بـه

كـأنه عــلم فى رأســـــه نـار

فقولها (فى رأسـه نار) تتميم ، وقالوا : إنه لم يستوف أحـد هذا المعنى استيفاءها ٠ وقال العسكرى : هو تتميم عجيب ٠ وقال ابن أبى الأصبغ : هو أعظم ما وقـع فى هذا الباب ٠

---

(٢٦) وهو : أن توفى المعنى حظـه من الجودة ، وتعطيه نصيبه من الصحـة ثم لا تغـادر معنى يكون فيـه تمـامه الا توردہ ، أو لفظـا يكون فيه توكيده إلا تذكـره ٠

راجع : الصناعتين للعسكرى ص ٣٨٩ ، تحرير التحبير ٢٤٨، معجم المصطلحات البلاغية ٢/٢٩ ٠

وهذا اللون البديعى من أسباب تمكن القـافية .

وقد اعتمدت الشـاعرة على الأساليب الخبرية ، وهى المنـاسبة هنا ؛ غير أن المطلـع جاء فى صورة استفهام وهو يعبر عن قلقهـا وحيرتها وعدم استقرارها كما بينـا .

الخيـال والتصـوير

فى القصيدة صـور بيانية قائمـة على التشبيه ، وأخـرى على الاستعارة والكناية منهـا :

كـان عـينى لذكـــراه إذا خطـرت

فيض يسيـل على الخـدين مـدرار

وقـولهـــا :

يا صخـر وراد مـاء . . . . . .

مشـى السبنـتى . . . . . .

وقـولهـــا :

وإن صخـر لتـأتم الهداة به كـأنه عـلم فى رأسـه نار

وقـولهـــا :

مثـل الـردينى . . . . البيت

وقـولهـــا :

. . . .

كـان ظلمتهـا فى الطخيـة القـار

وقـولهـــا :

. . . .

وحـالفـه بـؤس وإقتـار

وقــولهـــا :

طلــق اليــدين لفعــل الخـير ذو فجر

. . . .

إلــخ .

إلا أن قولهـا :

ومــا عجـــول على بو تطيــف بــه

لهــا حنينـــان : إعـــــلان وإســــرار

ترتــع مــا رتعــت حتى إذا ادكــرت

فــإنمـــا هى : إقبـــــال وإدبــار

لا تسمــن الدهــر فى أرض وإن رتعت

فــإنمـــا هى : تحنــــــان وتسجــار

يومــا باوجــــد منى يــوم فــارقنى

صخــر ، وللدهــر إحــلاء وإمـــرار

فيــه براعة فائقــة بنظرتها الفاحصة المتــأملة المتعمقة لذلك البو ، وحيرة أمه وحزنها وصدماتها المتوالية حين تكتشف الحقيقــة .

المــوسيقــى

الموسيقى الخــارجية :

القصيدة من بحــر (البسيط) وهو من البحــور التى نظم عليها كثير من الشعر العــربى ، ويأتى فى المــرتبة الثانية مع - الكامل ، والوافــر ، والخفيف ..

أما (الطويل) فقد انفــرد بالمــرتبة الأولى ..

ويعد بحــر الطويل مع بحــر البسيط بحــرى الجزالة والفخامة ، فيغلب على المنظوم منهما الرصانة والمتانة، وشدة الأسر، وروعة السرد،

وصلابة الحوك ، ولذلك يحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة ، وثروة من الأخيلة والمعانى لا تتفق لكل شاعر(٢٧) ٠

وقد بدأت الشاعرة قصيدتها - على عادة الشعراء - بالتصريع ، ولم يتكرر فى القصيدة ٠

وأما عن القافية فقد جاءت متمكنة تمام التمكن وكان لذلك أسبابه فمنه :

- الإيغال ، أو التتميم ، أو التبليغ(٢٨) وهو : أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تماما قبل انتهائه إلى القافية ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر إليها فتزيد البيت نصاعة ، والمعنى بلوغا إلى الغاية القصوى فى الجودة ٠

ومنه قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به
كأنه علم فى رأسه نار

لم ترض أن تشبهه بالجبل المرتفع بالهداية حتى جعلت فى رأسه نارا(٢٩) ٠

- والتطريز :

وهو أن يقع من أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن فيكون فيها كالطراز فى الثوب(٣٠) ٠

(٢٧) الشعراء وانشاد الشعر د٠ على الجندى ص ١٠٢ ، ط دار المعارف
(٢٨) راجع : الألفاظ والأساليب فى الدراسة الفنية لهذه القصيدة ٠
(٢٩) نقد الشعر : ١٦٨ ، العمدة ٢/٥٧ ٠
(٣٠) الصناعتين : ٢٦٧ ، معجم المصطلحات البلاغية ٢/٢٦٧ ٠

ومنـــه قول الـخنسـاء :

مشـى السبنتى إلى هيجــاء معضـلة

لــه ســلاحان : أنيـــاب وأظفـــار

ومــا عجـــول على بوتطيـف بــه

لهــا حنينـــان : إعـــلان وإســـرار

ترتـع مـا رتعـت حـتى إذا ادكـرت

فـإنمـــا هى : إقبـــال وإدبـار

لا تسـمن الدهـر فى أرض وإن رتعت

فـإنمـا هى : تحنـــان وتسجـار

يومـا بأوجـد منى يـوم فـارقنى

صخـر ، وللدهـر إحـلاء وإمـرار

وفيــه جمع بين المتناقضات فى صيغ تدل على مدى حيرتها وقلقها وصدمتها بفقد صخـر ..

المـوسيقى الداخليـة :

وتتمثـل فى :

الترصيع(٣١) : وهو : أن يتوخى فيـه تصـيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع ، أو شبيه به ، أو من جنس واحد فى التصريف..

ومنـه قـول الخنسـاء :

جـم فواضــله ، تنـدى انـامــله

كالبدر يجلو ولا يخـفى على السـارى

رداد عـارية ، فكـاك عانيـــة

كضـيغم باسـل ، للقـرن هصـار

---

(٣١) معجم المصطلحات البلاغية ١٣٤/٢ .

جـــواب أوديـــة ، حمـــال الـــوية
سمـــح الـــيدين جـــواد غـــير مقتـــار

نحـــار راغيـــة ، ملجـــاء طاغيـــة
فـــكاك عـــانيـــة ، للعظـــم جبـــار

المعـــانى والأفـــكار

ذهب أكثر النقـــاد إلى أن الشعر الجاهلى عنى بالجانب الحسى دون غيره ، وأن الشعراء اعتمدوا على الحس دون العاطفـــة الاعتماد كلـــه(٣٢) ٠

ولكن نظـــرة متأنيـــة إلى الشعر الجاهلى تكشف عن خطأ الحكم بالتعميم على الشعر الجاهلى بالحسية ٠

ولنكتف بمثـــال من قصيدتنا هذه(٣٣) ٠٠

تقـــول الخنســـاء :

ومـــا عجـــول على بو تطيـــف بـــه
لهـــا حنينـــان إعـــلان وإســـرار

---

(٣٢) راجع مثلا : العصر الجاهلى د٠ شوقى ضيف : ٢٢٠ ، فى تاريخ الأدب الجاهلى د٠ على الجندى : ص ٤٤٨ ، الوصف فى الشعر العـــربى د٠ عبد العظيم قنـــاوى : ص ١٠٢ ، الأدب وفنـــونه د٠ عز الدين اسماعيل : ١٤٠ ، فن الوصف ، إيليـــا حاوى ٠٠ وغيرها ٠

(٣٣)راجع مثلا قول عنترة فى معلقته :

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

وشـــكا إلى بعبـــرة وتحمحـــم

ترتــع مــا رتعــت حتى إذا ادكــرت

فــإنمـــا هى إقبــــــال وإدبــار

لا تسمــن الدهــر فى أرض وإن رتعت

فــإنمـــا هى تحنـــــان وتسجـــار

يومــا بأوجــــــد منى يــوم فــارقنى

صخــر ، وللدهــر إحـــلاء وإمــرار

فقد نظـرت الشاعرة إلى أفعـال النـاقة الظاهرة ، ونفذت إلى نفسها من خـلال هذا الظـاهر ، فوضعت يدها على موضـع الحـزن فيهـا ، وتغلغلت داخلها لترى أثر الصدمة ظاهرا كل مـرة بعد اكتشافها أنها صـارت ثكلى ، قد فقدت ابنها ..

ثم لم تكتف (الخنسـاء) بذلك ، بل إنها ذكـرت أنها لن تسمن أبدا وإن رتعت الدهــر فى مرعى ذى كلأ وفير ..

وهذا - إن دل فإنما - يدل على مدى تعمقها داخـل نفس هذه النـاقة ..

* * *

من النقائض الجاهلية

* معنى النقـــائض :

النقـائض : جمـع نقيضة ، مأخوذة فى الأصـل : من نقض البناء إذا هدمه ، والحبـل إذا حله ٠

والنقيضـة فى الشعر : ما ينقض به ، وذلك بأن ينقض الشـاعر الآخـر ما قاله الأول(١) ، هذا معنى النقيضة فى اللغـة ٠

أما معناها الأدبى والنقدى فهى :

« أن يتجـه شاعر إلى آخـر بقصيدة هاجيا أو مفتخرا ، فيعمد الآخـر إلى الرد عليـه هاجيا أو مفتخرا ، ملتزما البحـر والقافيـة والروى الذى اختـاره الأول ٠٠ » ٠

١ ـ ولابد : من وحدة الموضوع فخـرا أو هجاء أو سياسة أو رثاء أو نسيبا ، أو جمـلة من هذه الفنون المعـروفة إذ كان الموضـوع هو مجال المنـاقشة ومادة النقائض ٠

٢ ـ ولابد : من وحدة البحـر ، فهو الشكل الموسيقى الذى يجمـع بين النقيضتين ، ويجذب إليه الشاعر الثـانى بعد أن يختاره الأول ٠

٣ ـ ولابد : من وحدة الروى ، فذلك هو النهـاية الموسيقية المتـكررة التى تعـد جزءا من النظـام الموسيقى العـام للمناقضة ٠

٤ ـ ولابد : من وحدة حـركة الروى ، إتمـاما للتنسيق الوزنى ، وإن اختلفت فى بعض النقـائض ٠

وجانب المعنى هو مناط النقائض ومحورها الذى تدور عليه(٢) ٠٠

---

(١) راجع : اللسان والصحاح والقاموس (نقض) ٠

(٢) راجع : تاريخ النقائض فى الشعر العربى ، الشايب ص ٢ ، ٣ ، ط ١٩٤٦ م (بتصرف قليل) ٠

وتسمى القصيدة الأولى نقيضة بمعنى منقوضة ، والثانية نقيضة بمعنى ناقضة ..

هذه أسس النقائض فأينما وجدت تحققت المناقضة ..

لكن ذهب أحد نقادنا إلى : أن ما سبق العصر الأموى من هذا القبيل لا يطلق عليه اسم النقائض ، وأسباب ذلك عنده(٣) :

« أن الشعراء فيما قبل العصر الأموى لا يتقيدون دائما بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية .. وهم لا يقبلون على ذلك إقبال المحترف الذى يهب حياته لمهنة يمارسها .. كما أن هذا النوع من الشعر لم يستمر مثلما استمر فى العصر الأموى بصورة منظمة .. كما أن الشاعر الجاهلى لم يكن يهجو ليضحك جمهورا كما نجد فى عصر بنى أمية .. » ثم يقول : -

« وليس عندنا قبل هؤلاء الشعراء الثلاثة دواوين للهجاء بهذا المعنى الذى نجده عندهم ..

من أجل ذلك كنا نزعم أن الهجاء تحول عند الشعراء الثلاثة إلى فن جديد أو لون جديد ، ولا بأس أن نسمى هذا اللون باسم (النقائض) .. أما الهجاء الذى سبقهم فلا نسميه نقائض إلا على ضرب من التجوز ، أو على أنه كان بذورا لهذا اللون الجديد الذى نقرأه عند (الأخطل والفرزدق وجرير) ..

ونحن نختلف مع الدكتور شوقى ضيف فى ذلك ..

لأننا لو استقرأنا الشعر الجاهلى - فضلا عن الإسلامى - لوجدنا أسس المناقضة وعناصرها متحققة فيه ، فلماذا نضن بإطلاق اسم النقائض عليها ؟

---

(٣) الدكتور شوقى ضيف فى كتابه : التطور والتجديد فى الشعر الأموى : ص ١٦٢ - ١٦٦ .

غاية الأمـر أن الفرق بين نقائض (الثلاثى) الأموى وما سبقهم : أن هجـاء الثلاثى كان من بين أهدافه إضحاك الجمهور وتسليتهم ولم يتأت ذلك ويتهيأ إلا بتمكنهم تمكنـا قـويا من الإمسـاك بمفاتيح ذلك اللون الذى احترفوه ٠

وتلك سنة التطور ، فقد وصـل هذا الفن إليهم ومـر بعدة مراحل تطور فيهـا حتى صـار إلى أعلا قمة عندهم ٠٠

إذاً : النقـائض فن شعرى تمتد جـذوره إلى الجاهلية ٠٠ وهذا نمـوذج من هذا الفن فى الجاهلية(٤) ٠٠

بين عبـاس بن مـرداس وخفاف بن ندبة

*** تعـريف بالشـاعرين :**

١ ـ خفـاف بن ندبة(٥) :

هو : خفـاف بن عمير بن الحارث بن الشريد بن رياح ٠٠ من بنى سليم بن منصـور ٠

و (ندبة) أمـه ٠ وكنيته (أبو خراشة) يقول له العباس بن مـرداس :

أبا خـراشــة امـا أنت ذا نفـــــر

فـإن قـومى لم تاكلهـم الضبـــــع

وهو ابن عـم الخنسـاء وصخـر ومعـاوية ٠٠ وقد عـاش فى الجاهلية ثم أدرك الإسلام فأسلم ، وكان صحابيا ٠٠

وحين ارتدت قبيلته وقف منهـا موقفا معارضـا ، إذ ثبت هو على

---

(٤) راجع فصلا كاملا للنقائض فى رسالتنا (الدكتوراه) شعر قبيلة بنى سليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى ٠

(٥) راجع ترجمته وأخباره فى : أسد الغابة ٩٣/٧ ، الخزانة ١٥/٤ ، المؤتلف والمختلف : ١٥٣ ، الشعر والشعراء : ٣٤١ ، الأغـانى ٧٤/١٨ ، وغيرها ٠

إسـلامه ، وأنكر فعلهم وتبرأ منهم قائلا :

لا دينـكم دينى ، ولا أنـا كافـــــر

حتى يـزول إلى الطـراة شـمام

*** منزلتـه الشعـرية :**

- عده (ابن سلام) فى الطبقـة الخامسة من الفرسان مع مالك بن نويرة ، ومع ابنى عمه صخر ومعـاوية .
- وقال عنه الأصمعى(٦) :

خفـاف بن ندبة ، وعنترة ، والزبرقان بن بدر ، أشعر الفـرسان .. ثم قال :

أفى الدنيا مثل فرسان قيس وشـعرائهم ؟ ثم ذكـر عدة منهـم : عنترة ، وخفاف بن ندبة ، وعبـاس بن مـرداس ، ودريد بن الصمة .

وقد اهتم الأصمعى بشعره ، فذكـر له فى الأصمعيات أربعا ما بين قصيدة ومقطوعة ؛ فى حين أنه لم يختر لأى شاعر من شعراء الأصمعيات مثـل خفاف .. كما اهتمت كتب اللغـة والمعـاجم بشعره ، بل وكتب التفسـير أيضـا .

وخفاف من أغـربة العرب(٧) ، ومع الاختلاف فى عددهم إلا أن الإجماع منعقد عليه مع عنترة .

ومع أنه كان أسود حالكا إلا أن ذلك لم يترك فى نفسـه أثرا كما كان لدى (عنترة) مثلا ، وإن ذهب بعض النقـاد إلى أن لسـونه أثر فى شعره فصـار كل شئ أسود(٨) .. ، واستشهد لذلك بقول خفاف : - من قصيدته التى سنعرض لها - :

---

(٦) فحـولة الشعـراء : ص ٢٧ .

(٧) الأغانى ٧٤/١٨ وما بعدها ، الشعر والشعراء ٣٤١ ، النقـائض لأبى عبيدة ٣٧٢/١ .

(٨) الدكتور / عبده بدوى فى كتابه : الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العـربى : ص ٤٢ .

كأن تكشفه بالنشاص م بلق تكشف تحمى مهارا

فقد جمع بين السواد والبياض فى (بلق) ..

ويقول خفاف أيضا :

فجادت له يمنى يدى بطعنة
كست متنه من أسود اللون حالكا

وأكثر شعر خفاف فى مهاجاةالعباس بن مرداس ، وهى من فن النقائض الذى سنورد نماذج منه .

وتوفى خفاف فى سنة ٢٠ هـ .. وقد جمع شعره الدكتور (نورى القيسى) وطبعه فى بغداد ..

٢ - العباس بن مرداس(٩) :

هو : العباس بن مرداس بن أبى عامر بن جارية .. ينتهى نسبه إلى سليم بن منصور ..

كنيته : أبو الهيثم .. وقيل غير ذلك .

وليست (الخنساء) أمه كما تزعم بعض المصادر ، وإنما أمه (هند بنت سيان) وهى امرأة زنجية ..

عاش العباس فى الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم ..

● شعره :

لشعر العباس منزلة طيبة لدى النقاد .

فهذا الأصمعى يسأل عن (أبى خراش الهذلى) فيقول : فحل

---

(٩) راجع : ترجمته وأخباره فى : جمهرة ابن حزم ٦٣ ، معجم الشعراء ١٠٢ ، الأغانى ٣٠٢/١٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء ٣٠٠/١ ، ٧٤٦/٢ وغيرها .

ثم يســال عن (خفــاف بن ندبة) و (الزبرقان بن بدر) فيقــول : هؤلاء أشعر الفرسان ، ومثلهم العباس بن مرداس(١٠) ٠

وقد زخـرت كتب المعـاجم واللغـة والبلدان ، بشعر العبــاس ابن مــرداس ٠ ٠

وجمــع شعره ـ في العــراق ـ الدكتور (يحيى الجبوري) وحققه وطبعــه ٠

وتوفى العباس فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه(١١) ٠٠

● **سبب المهــاجاة بينهمــا :**

يقول أبو الفــرج الأصفهانى(١٢) :

« كان بدء ما كان بين خفــاف بن ندبة والعبــاس بن مرداس أن خفافا كان فى ملأ من بنى سليم فقال لهم :

إن (عباس بن مرداس) يريد أن يبلغ فينا ما بلغ (عبــاس بن أنس) ويأبى ذلك عليــه خصــال قعدت به ، فقال له فتى من رهــط العبــاس :

وما تلك الخصــال يا خفــاف ؟

قال : اتقــاؤه بخيله عند الموت ، واستهانته بسبايا العرب ، وقتله الأسرى ، ومكالبته للصعاليك على الأســلاب ، ولقد طالت حياته حتى تمنينــا مــوته ٠

---

(١٠) راجع : فحولة الشعراء للأصمعى ص ٢٧، ٣٥ ٠

(١١) تهذيب التهذيب ١٣٠/٥ ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢٣٤ تحقيق د٠ شكرى فيصل وآخــرين ٠

(١٢) الأغانى (دار) ٧٥/١٨ وما بعدها ٠

فانطلق الفتى إلى العباس فأخبره الخبر ، فقال العباس : يا ابن أخى : إن لم أكن كالأصم فى فضـله ، فلست كخفاف فى جهله ..

وبدأت النقائض بينهما . وتطور النزاع حتى اقتتلا بقومهما قتالا شـديدا ، وكانت الغلبـة فيـه للعبـاس ، إلى أن تدخل بينهما (دريد ابن الصمة) وآخـرون ، فقال العبـاس بن مـرداس : فإنا نكف عن الحـرب ونتهادى الشعر ، فقال دريد :

فان كنتما لابد فاعلين فاذكـرا ما شئتما ودعا الشتم ، فإن الشتم طريق الحرب ، فانصرفا على ذلك ، فقال العباس بن مرداس(١٣) :

فابلـــغ لديـك بنى مـالك فانتـم بانبـائنا أخبـــــر(١٤)

فامـــا النخيـــل فليست لنـــا نخيـــــــل تسـقى ولا تـؤبـــر(١٥)

ولكــن جمعــا كجـذل الحـــكا ك فيـــه المقنـــع والحســـــر(١٦)

مغـــاوير ، تحمـــل أبطالنـــا إلى المـــوت ســـاهمة ضـــمر(١٧)

---

(١٣) الديوان ، قصيدة رقم ١٨ ص ٦٥ ، والأغانى ٧٨/١٨ .

(١٤) بنو مالك : هم بنو مالك بن ثعلبة بن سليم .

(١٥) تأبير النخـل : إصـلاحه وتلقيحـه .

(١٦) جذل الحكاك : عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به ، ويضرب مثلا لمن يلجأ إليه ويستغنى برأيه .

(١٧) مغاوير : كثيرو الغارات . ساهمة : أى خيل عابسة . ضـمر : ضامرة وهى من صفات الخيل الجيدة .

واعـــددت للحـــرب خيفانـــة
تديـم الجـــراء إذا تخطـــر (١٨)

صـــنيعا كقـــارورة الزعفـــرا
ن ممـا تصـــان ولا تؤثـــر (١٩)

إذا شـــاء أربابهـــا لـم يـــزل
خضـــاب بلبتهـــا أحمـــر

يصـــاد اعتباطا عليهـــا الظليـم
فى القطـر والفـرأ الأقمـــر (٢٠)

فأجابه خفاف بن ندبة (٢١) :

أعبـاس إنـــا ومـا بيننـــا
كصـــدع الزجاجـــة لا يجبـــر

فلســـت بكـفء لأعراضـــنا
وأنت بشـــتمكم أجـــدر

ولســـنا بأهـــل لما قلتمـــو
ونحـــن بشـــتمكم أعـــذر

أراك بصـــيرا بتـــلك التـــى
تريـــد ، وعـن غـــيرها أعـــور

---

(١٨) خيفانة : فرس سريعة .

(١٩) الزعفران : صبغ أصفر طيب الرائحة .

(٢٠) الاعتباط : النحر من غير داء ولا كسر ، ويقال : عبطته الدواهى إذا نالته من غير استحقاق . الظليم : ذكر النعام . الفرأ : حمار الوحش . الأقمر : الأبيض ، يقال حمار أقمر وسحاب أقمر .

(٢١) ديوانه - قصيدة ٦ ص ٥٥ .

فقصـــرك مـــنى رقيـــق الذبـــــا
ب عضــب كريهتــــه مبتــــــر (٢٢)

وأزرق فى رأس خطيـــــــة
إذا هـــــز أكعبهــــا تخطـــــر (٢٣)

يلـــوح الســـــنان عـــلى متنهـــا
كنـــار عـــلى مـــرقب تســـعر (٢٤)

وزعـــف دلاص كمـــاء الغـــــدير
توارثـــــه قبـــــله حمـــــير (٢٥)

فتـــلك وجـــرداء خيفانـــــة
إذا زجـــر الخيـــل لا تزجـــر (٢٦)

---

(٢٢) القصر : الموضع الذى احتبس به . هكذا ذكر محقق الديوان ولكنى أرى أن المعنى هنا : نهايتك وسكوتك . الذباب : حد طرف السيف الذى بين شفرتيه ، وقيل : ذباب السيف : طرفه المتطرف الذى يضرب به ، وقيل : حده . العضب : السيف القاطع . وذو الكريهة : السيف الذى يضرب ولا ينبو .

(٢٣) الأزرق : السنان . الخطى : الرماح وهى نسبة إلى الخط خط البحرين : تخطر : ترتفع وتنزل .

(٢٤) مرقب : مكان عال للمراقبة .

(٢٥) زعف : درع محكمة ، وقيل : واسعة طويلة . الدلاص : الشديد النعومة والملوسة .

(٢٦) خيفانة : سريعة . جرداء : قصيرة الشعر ، وشبه الفرس بالجرادة لسرعتها وخفتها وضمورها .

ويطيل وصف فرسه تلك إلى أن يقول :

اعبـاس إن اســتعار القصـــي
د فى غـــير معشـــره منكـــر

عــلام تنــاول مــالا ينـــال
فتقطـع نفســك أو تخســـر

فـإن الرهـــان إذا مـا أريـــد
فصــاحبه الشـــامخ المخطــر(٢٧)

تخاوص لـم يســـتطع عـــدة
كانــك مـن بغضـــنا اعـــور(٢٨)

فقصــرك ماثــورة إن بقيـــت
أصـــحو بهـالك أو اســـكر

لســـانى وســيفى معـا فانظـرن
إلى تـــلك ايهمـــا تبـــدر(٢٩)

والنقيضتان من بحر واحد هو (المتقارب) ٠٠ والروى وحركته واحدة، والموضوع واحد ٠٠

وقد بدأ (العباس) نقيضته طالبا من (خفاف) أن يبلغ بنى مالك - وخفاف أحدهم - بأن العباس وقومه أهل الحرب والفروسية عرفوا بالشجاعة والفتك ، فقد تفرغوا للحرب ، ولم يعرفوا الزراعة ٠

وليس عجيبا أن يفتخر (العباس) بأن قومه ليسوا أهل زرع أو ضرع ، وإنما احترفوا حرفة أخرى كانت شغلهم الشاغل وتمرسوا

---

(٢٧) المخطر : من جعل نفسه خطرا لصاحبه فبارزه ٠

(٢٨) التخاوص : غض البصر مع تحديق النظر ٠

(٢٩) تبدر : تجعل إليه ٠

فيها ، وتفرغوا لها ، وصارت غاية ما يفخر به ، إنها الحرب وتلك منزلتها عند العرب عموما ، والفرسان منهم خصوصا ، والعباس أحد هؤلاء الفرسان • وهو القائل يصف المسلمين يوم حنين(٣٠) :

لا يغرسون فسيل النخل وسطهم
ولا تخاور فى مشتاهم البقر

ويفخر العباس بأن قومه هم ملاذ الناس وملجؤهم حين تحل بهم الكوارث وتتعقد أمامهم سبل الحياة ، فيجدون فيهم الرأى الصائب، والحكمة البالغة ، ولا عجب فهم أهل الشورى •

وقومه قد أعدوا الخيول السريعة المتمرسة فى الحرب ، المخضبة بدماء الأعداء ، وهى لشدة سرعتها تلاحق النعام المعروف بسرعته الفائقة فيتمكن الفارس من اصطياده ، كما يصيد حمار الوحش الأبيض بسهولة أيضا •

وقد جمعت نقيضة العباس بين : الفخر ، والوصف والهجاء عن طريق التعريض •

وأما نقيضة (خفاف) فقد بدأها بقوله :

إن الذى حدث بيننا ياعباس يصعب أن يجبر ، ثم يقول له : لست كفئا لنا ياعباس ، وأنت أحق بكل ما شتمتنا به ، وما رميتنا به كله كذب وبهتان ، ولنا العذر فى شتمكم ، ويحذره ويتوعده ويقول : أنت لا تتحمل قوة (خفاف) وبأسه ، ولا تستطيع أن تجاريه ، فقد أعددت لحربك سيفا (عضبا) قاطعا بتارا ، وأعددت سنانا أزرق فى رأس رمح خطية إذا هزت أكعبها تحركت نحو خصمى فأهلكته ، والسنان مرتقب كالنار المسعرة ، وأعددت درعا محكمة طويلة شديدة عتيقة ،

---

(٣٠) القصيدة رقم ١٣ فى ديوان العباس •

وهذه كلها إلى جانب فرس سريعة نادرة ، ومتفردة عن سائر الخيل..

ثم أطال فى وصف فرسه وصفا بارعا :

ويعود يقول للعباس : إنك لست أهلا لمهاجاتى ، ولا تستطيع أن تقف أمام قصيدى ، وما دمت لست أهلا لذلك فلماذا تستعير ما ليس لـك ؟ .

ثم يتنبأ له بالفشل والخيبة والهزيمة ، وذلك أن للرهان أهـله .. وخفاف أهله ، فهو الشامخ المبارز الخطر على خصمه .

ويقـول للعباس : أنت تعرف ذلك كلـه ، ولكنك تتعامى عنـه وتتجاهله .

وفى النهاية يقول له :

معى كلا السلاحين ، أمتلكهما (لسانى) شعرى ، وسيفى ومعدات الحرب ولوازمها ، فانظر ياعباس أى السلاحين تختار أن أحاربك بهما ، فسوف أعجل لك به ، وأقضى عليك .

وجمعت نقيضة خفاف : فخرا وهجاء وتكذيبا ونقضـا لما قالـه العباس .

وهكـذا توافـرت للقصـيدتين كل مقومـات النقائض وعناصرها وأسسها ..

وإذا كان العباس قد بدأ فاختار البحر والروى ، ونقض خفـاف قصيدته ، متابعا إياه فى البحر والقافية ، فإن العباس عاد يرد عـلى نقيضة خفاف المذكورة قائلا (٣١) :

خفـــاف ألــم تــر مــا بيننـــــــا
يزيـــد اســـــتعارا إذا يســــــعر

---

(٣١) الديوان ق ١٧ ص ٦٣ .

ألـم تـر أنـا وهبنـا التـلا
د للسـائلين ومـا نغـدر (٣٢)

لأنـا نكلـف فـوق الـتى
يكلفهـا النـاس لـو تخـبر

لنـا شـيم غـير مجهولـة
توارثهـا الأكـبر الأكـبر (٣٣)

وخيـل تكـدس بالدارعـين
تنجبر في الـروع أو تعـقر (٣٤)

عليهـا فـوارس مخبـورة
كجـن مسـاكنها عبقـر (٣٥)

ورجراجـة مثـل لـون النجـو
م لا العزل فيهـا ولا الحسـر (٣٦)

وبيـض سـوابغ مسـرودة
مواريـث مـا أورثـت حمـير (٣٧)

---

(٣٢) التلاد : جمع تالد وهو المال القديم .

(٣٣) شيم : جمع شيمة وهي الخلق .

(٣٤) الدارعون : لابسو الدروع . الروع : الحرب .

(٣٥) مخبورة : مجربة . عبقر : موضع تزعم العرب أنه أرض الجن ، ونسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعه .

(٣٦) رجراجة : كتيبة كأنها تتمخض ولا تسير لكثرتها . العزل : الذين لا سلاح لهم . الحسر : الذين لا مغفر لهم ولا درع .

(٣٧) السوابغ : الدروع الواسعة . مسرودة : منسوجة وقد تداخل حلقه بعضه فى بعض .

فقـد يعـلم الحـى عنـد الصـــبا
ح بـان العقيلـة بى تســــــتر (٣٨)

وقـد يعـلم الحـى عنـد الرهـــا
ن انى انـا الشـــامخ المخطــــر (٣٩)

وقـد يعـلم الحـى عنـد الســؤا
ل انى اجـــــود واســــتمطر (٤٠)

فـــانى تعـــيرنى بالفخــــــار
وهـــا انـا هـذا هـو المنكــــــر (٤١)

وهنا ينقض العباس كل ما قاله خفاف ، ويسلبه كل مفاخره ويخص بها نفسه وقومه ، فيفخر بانهـم قادرون على إشـعال الحـرب وقتما يريدون • ثم يقول لخفاف : ألم تر أنـا نجود باكرم أموالنا للسائلين !! ألا تعلم أن الغدر ليس من أخلاقنا ، فنحن وراث أخلاق طيبة !!

ويأخذ فى وصف خيله ـ كما وصف خفاف ـ فهى سريعة ، عليها الفرسان الذين يلبسون الدروع ، وقد تقتل فى المعارك أو تعقر •

ويصف فوارسهم بأن لديهم خبرات بالحروب وفنون القتال والكر والفر كأنهم جن من سكان عبقر • ويصف كتيبتهم وهى سائرة للقـاء الأعـداء كأنها تتمخض ولا تسير مما يدل على كثرتها ، وترى فيهـا لـون النجوم المنبعث من الحديد الذى معهم • وهـذه الكتيبة ليس فيها (عزل) أى لا سلاح معهم ولا (حسر) لا مغفر لهم ولا درع •

---

(٣٨) العقيلة : كريمة الحى •
(٣٩) المخطر : الذى يجعل نفسه خطرا لقرنه فيبارزه ويقاتله •
(٤٠) الاستمطار : الاستسقاء : أى أكرم وأعطى عند السؤال •
(٤١) الفخار : الافتخار وعد القديم •

ويصف الدروع التى مع مقاتليهم بأنها (سوابغ) واسعة منسوجة نسجا محكما ، تداخلت حلقاتها بعضها فى بعض ، وهى عتيقة قديمة .. وهكذا ..

نقض (العباس) كلام (خفاف) فرد فخره ، ووصف أسلحته وقومه وصفا جعلها أقوى وأشد من أسلحة خفاف .. وكذلك الفرسان فقد وصفهم العباس وصفا بلغ الغاية حين جعلهم جنا من سكان وادى عبقر ..

ثم افتخر العباس بنفسه ، فهو حامى حمى القوم وكرائمهم .. وإذا كان خفاف قد هدد العباس بأنه سيخسر ويفشل إذا ما دخل الرهان فان العباس ينقض قوله هذا قائلا :

وقد يعلم الحى عند الرها
ن انى أنا الشامخ المخطر

وقد استخدم العباس كلمات خفاف نفسها (الرهان ـ الشامخ ـ المخطر) فقلب فخره وأبطله ، وخص نفسه وقومه بتلك المفاخر ، فكان القلب هو طريق المناقضة . ثم افتخر بجوده وكرمه وأنه ليس هناك من يستطيع مجاراته عند الافتخار وعد المحامد والمآثر .

وبعد ...

★ فهذه النقائض مستوفية العناصر والشروط التى تقوم عليها المناقضة إذ قامت على الأسس المعروفة من حيث :

- وحدة البحر .
- وحدة القافية .
- وحدة الروى وحركته .
- وحدة الموضوع .

★ الفارق الفنى بينها وبين نقائض العصر الأمــوى ليس كبيرا إذا ما قيس بفرق الزمن ٠

★ كان العباس وخفاف من واضعى لبنات هذا الفن فى الجاهليــة وذلك بالنظر إلى الكم الشعرى فى هذا الفن عندهما الذى قــد لا يتوافر عند غيرهما من الجاهليين (٤٢) ٠

* * *

(٤٢) راجع / رسالتى الدكتوراة : شعر قبيلة بنى سليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى ص ٤٢٢ وما قبلها ٠

فن الوصف فى الشعر الجاهلى

الوصـف :

(هو تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم ، وتلوين الآثار الإنسانية بالوان كاشفة عن الجمال ، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلا يصل بك إلى الأعماق)(١) ٠

وقد وصف الشعراء الجاهليون الطبيعة الصامتة والصائتة ، وصفوا (ما أحاطت به معارفهم ، وأدركه عيانهم ، ومرت به تجاربهم وهم أهل وبر ، وصحونهم البوادى ، وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها من ماء وهواء ، ونار وجبل ونبات وحيوان وحمار ، وناطق ومتحرك وساكن ، وكل متولد من وقت نشوئه وفى حال نموه إلى حال انتهائه ٠٠)(٢) ٠

لقد وصفوا كل ما حولهم ، وأجادوا نعته ، غير أن بعضهم أجاد وبرز فى وصف شىء معين ، أو أشياء ، فعرف به واشتهر ، وذلك لأن (الشاعر منهم لا يتعاطى إلا ما يحسن من ذلك ضرورة ، وقد يشارك فى أوصاف كثيرة ، ولكنه ينفرد بالشهرة فى بعضها من جهة العلم لا من جهة الصناعة ، فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته وأقدر على استقصاء هذا العلم فى شعره كان أبلغ فى الوصف ، وأولى بالتقديم فيه ، وأن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم وصرفته روعة العجب ، فإن العلم يعطى مادة الحقيقة ، والعجب

---

(١) الوصف فى الشعر العربى ، عبد العظيم قناوى ٤٢/١ ٠

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا ١٠ ، ١١ (بتصرف يسير) تحقيق د٠ الحاجرى ، ود٠ زغلول سلام ٠

يكسبها صورة من المبالغة الشعرية ، وكل وصف لا يكـون عن هـذين أو احدهما فهو تزيد من الكذب ٠٠)(٣) ٠

وقد برع بعضهم فى وصف الظواهر المناخية من سحب وبرق ورعد ومطر إلا أنهم (كانوا يتوخون الإيجاز إذا وصفوا الصحراء او الريـح أو الليل أو القيظ مثلا ، ولكنهم يسهبون إذا وصفوا الناقة أو الفـرس مثلا ٠٠٠)(٤) ٠

وقد أشرنا إلى سبب ذلك عند شرحنا معلقة طرفة ٠٠

وصف الظواهر المناخية
لـ (خفاف بن ندبة)

القصيدة الأولى :

يقـول خفاف(٥) :

فدع ذا ٠٠ ولكن هل ترى ضوء بارق
يضئ حبيـا فى ذرى متالـــق(٦)

عـلا الأكـم منـه وابـل بعـد وابل
فقـد أرهقـت قيعانـه كل مرهـــق(٧)

---

(٣) تاريخ آداب العرب ، الرفعى ٣ / ١٢١ ، ١٢٢ ٠

(٤) التوجيه الأدبى ، طه حسين وآخرون ص ٢٥٢ ٠

(٥) ديوانه ، ق ١ ، ص ٣٦ ـ ٣٩ ٠

(٦) الحبى : السحاب المتراكم ٠ الذرى : جمع ذروة وهى أعـلا كل شئ ٠

(٧) الأكم : جمع أكمة ٠ أرهقت : غشيت بالماء ٠ القيعان : جمع قاع وهو الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ٠

يجـر باكنـاف البحـار إلى المـلا
ربابـا لـه مثـل النعـام المعلـق(٨)

إذا قلـت تزهـاه الريـاح دنـا لـه
رباب لـه مثـل النعـام الموسـق(٩)

كان الحـداة والمشـايع وسـطه
وعـوذا مطافيـل بأمعـز مشـرق(١٠)

اسـال شـقا يعلـو العضـاه غثـاؤه
يصـفق فى قيعانهـا كـل مصـفق(١١)

فجـاد شـرورا فالسـتار فاصبحت
يعـار لـه والواديـان بمـودق(١٢)

---

(٨) يجر : يعنى الحبى . الاكنـاف : النواحى . البحـار والمـلا : موضعان . الرباب : سحاب دون السحاب الأعظم .

(٩) تزهاه : تسوقه وتستخفه . الوسق : التحميل أو الطرد والسوق .

(١٠) المشايع : الذى يصيح بالإبل لتجتمع وتنساق . العوذ : جمع عائذ وهى الحديثات النتاج . المطافيل : التى معها أولادها . الأمعز : الأرض الحزنة الغليظة ذات الحجارة .

(١١) العضاة : ما عظم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه . الغثاء: ما يحمله السيل من الزبد والوسخ ونحوه : شقا : اسـم مكان . الصفق : الضرب الذى يسمع له صوت ، وكـذلك التصـفيق ، وصفقت الريح الشئ : إذا قلبته يمينا وشمالا ورددته .

(١٢) شرورا ، الستار ، يعار : مواضع فى بلاد بنى سليم . أجاده : أصابه الجود وهو المطر الغزير . مودق : مكان نزل فيه المطر.

كأن الضباب بالصحارى عشية

رجال دعاها مستضيف لموسق (١٣)

له حدب يستخرج الذئب كارها

يمر غثاء تحت غار مطلق (١٤)

يشق الحداب بالصحارى وينتحى

فراخ العقاب بالحقاء المحلق (١٥)

يصف (خفاف) هنا سيلا إلا أنه مصحوب ببرق ، وهذا البرق تظهر إضاءته شديدة وسط الظلام الناتج عن تراكم سحب كثيرة ، وها هو المطر يغزر ويشتد غزارة حتى طمر القيعان والآكام .

ثم يعود إلى السحاب ، فيصف سحابا عظيما وقد جر سحابا دونه لينتقل به من (البحار) إلى (الملا) .

غير أن الناظر إلى هذين السحابين يجد نفسه قد انخدع حين ظن أنهما ينتقلان بسرعة إلى مكان آخر ، فسرعان ما ينضم إليهما سحاب ثالث فيتراكم بعضه فوق بعض ويثقل .

وكأن الإبل وحداتها ومشايعها وسط هذا السحاب ومع الإبل

---

(١٣) الضباب : جمع ضب . المستضيف : المستغيث . موسق : اسم مكان من الوسق وهو الجمع .

(١٤) حدب : ارتفاع الموج،حدب الماء : موجه، أو هو كثرته وارتفاعه. يمر : المر قد يكون معناه الفتل . وقد يكون الإمرار .

(١٥) الحداب : جمع حدب وهو ما غلظ من الأرض وارتفع . ينتحى: يقصد . الحقاء : جمع حقو وهو الموضع الغليظ المرتفع على السيل . المحلق : المرتفع في طيرانه ، وخص العقاب لأنه يسكن أعالي الجبال .

أولادها الصغار وكأنها فى أرض غليظة ذات أحجار مما يجعل السير بطيئا .

لقد نتج عن تلك السحب أمطار غزيرة تحولت إلى سيول جارفة، وقد صار مستوى ارتفاعها أعلا من شجر العضاه إذ غطيت بالماء وصارت أمواجه تتلاطم .

وقد سار هذا السيل حتى غمر وغطى (شرورا) و (الستار) و (يعار) واستقر فى (يعار) و (الواديين) ..

وقد كان أثره رهيبا ، فها هى أنواع الحيوان تخرج مذعورة من أماكنها :

هاهى الضباب وقد خرجت فزعة ولهة وكأنها رجال دعاها داع طالبا نجدتها فتجمعت ذاهبة إليه .

وهذه الذئاب قد خرجت من مخابئها على كره منها .

بل بلغ من ارتفاع هذه السيول أنه شق مرتفعات الأرض قاصدا فراخ العقاب رغم أن أماكنها فى أعالى الجبال لكنها لم تنج من هذا السيل المهلك المدمر .

لقد تتبع خفاف - فى عرضه لهذه الصورة - الظواهر المناخية فى تسلسل منطقى ، وترتيب واقعى .

فنظر إلى السحاب وسنا برقه،وما تبع ذلك من تساقط المطر وتتابعه وانهماره إلى أن غشى الأماكن التى نزل فيها ، ويظن أن الغمام سينجلى وإذا به تنضم إليه سحب أخرى فيتراكم ويثقل وكأن الطريق أمامه وعر فثقل عليه المشى . ونتج عن ذلك أمطار غزيرة صارت سيلا أصاب ديار بنى سليم وملأ يعارا والواديين حتى استقر فيهما ماء كثير ..

ويرينا أنواع الحيوان ممثلة فى الضب ثم الذئب ، ويعرج على

الطيور فى أعالى الجبال فيذكر أنها لم تسلم - رغم مكانها الغالى - من الأمطار .

وإنك لتقف أمام هذه الصورة الرائعة التى أظهرت مهارة (خفاف) فى رسمها معجبا بها كصورة كلية ، متمليا لصورها الجزئية .. ذلك أن الشاعر رأى ما يراه جل الناس من هذا المنظر - تراكم السحاب -، فهو منظر مألوف ، ظاهر لكل الناس ، وقد دعا القرآن الكريم إلى النظر والتأمل فى هذه الظاهرة فقال تعالى : (**ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**) .

إن عرب البادية لترقبهم الماء النازل من السماء - ترقب رجاء فى أن يكون هذا الماء غيثا ، أو ترقب حذر وخوف من أن يكون سيلا مهلكا مدمرا - أطالوا النظر فى السماء وتأملوا وتابعوا تلك العملية وعاشوا التجربة بكل مشاعرهم فجاءت صورهم صادقة رائعة .

ويبدو أن خفافا كان حزينا فجاءت صورته هذه مصحوبة بهلاك وتدمير وإزعاج وطرد .. الخ .

ولكنه فى القصيدة الثانية كان مسرورا متفائلا فكيف وصف البرق والسحب والأمطار ؟

القصيدة الثانية :

يقول خفاف بن ندبة(١٦) :

---

(١٦) ديوانه ص ٧٨ ، أصاح : أي أصاحبي .

اصـاح تـرى النبرق لـم يغتمـض
إذا زعزعتـه الجنـوب اسـتطارا (١٧)

فسـل مصـابيحه بالعشـا
ء تحسـب مـن حافتيـه المنـارا (١٨)

كـان تكشـفه بالنشـا
ص بلق تكشـف تحـمى مهـارا (١٩)

اقـام بـذى النخـل ريعانـه
وجـاد مسـلحة فالسـتارا (٢٠)

---

(١٧) لم يغتمض : لم يسكن لمعانه فعبر عنه بيغتمض لأن النائم تسكن حركاته . زعزعته الجنوب : دفعتـه ريح الجنـوب وحركته . استطار : تصدع تصدعا مستبينا .

(١٨) سل : انتزع الشيء وأخرجه فى رفق . المنار : موضع النور .

(١٩) تكشف البرق : أى لمعانه حـين يضيء السحاب فتراه أبيض . ويقال : تكشف البرق : إذا ملأ السحاب ، قال صخر الغى :

اجش ربحـلا لـه هيـدب
يرفـع للخـال ريطـا كشـيفا

قال أبو حنيفة : يعنى أن البرق إذا لمع أضاء السحاب فتراه أبيض ، فكأنه كشف عن ربط .. والريطة : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ، الربحل : التار من الطول ، وقيل : التـام . الخال : نوع من البرود ، وهو هنا : السحاب . اللسان : كشف. النشاص : السحاب المرتفع ، وقيل هو الذى يرتفع بعضه فوق بعض وليس بمنبسط . البلق : سواد وبياض . المهار : جمع كثرة لمهر وهو ولد أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية .

(٢٠) ذو النخل : قال محقق الديوان : بهذا الدسم غير موجود وإنما الموجود (ذو النخيل) وهو موضع فى بلاد العرب . الـريع: النماء والزيادة ، وأرض مريعة : أى مخصبة . الستار : جبل معروف بالحجاز أو هو موضع . مسلحة : موضع .

وحـــطط أحمـــــر بالدونكــــين

يغشـين معتصــــمات تعــــــارا (٢١)

فاضـــــحى بمعتلــج الواديـــــين

يبــرق منــه صـــبير نهـــــارا (٢٢)

حســـيف يزيــف كزيــف الكســـير

ينهمـر المــاء منــه انهمـــــــارا (٢٣)

إن هذا البرق لم يسكن لمعانه ولم يهدأ .. وحـين تدفعـه ريح الجنوب فإنه يتصدع ويتشقق فتكثر مصابيحه وقت العشاء وفى جوانبه تجد النور ظاهرا .

ثم يشبهها وسط السحاب المرتفع بخيل (بلق) فيها بياض وسواد، تحمى أمهارها .

لقد نزل المطر الناتج عن هذه السحب فأخصب (ذا النخـل) ونزل كذلك (المسلحة) و (الستار) وهما موضعان .

---

(٢١) الدونكان : واديان فى بلاد بنى سليم . اعتصم : امتنع . تعار : اسم جبل .

(٢٢) اعتلج الموج : التطم واعتلجت الأرض : طال نباتها والتف وكثر واعتلجت الوحش : تضاربت وتمارست . وفى الحديث : ان الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان أى يتصارعان . والواديان : بلدة فى جبال السراة بقرب مدائن لوط . الصبير : السحابة البيضاء، وقيل هى القطعة من السحابة تراها كأنها مصبورة أى محبوسة، وقيل : السحاب الذى يثبت يوما وليلة ولا يبرح .

(٢٣) الحسيف : جرس الحيات . زاف البعير : تبختر فى مشـيه ، وقيل : الزيف دفع مقدمة الجسم بمؤخرته . الكسير : المكسور والكسير من الشاء : المنكسرة الرجل التى لا تقدر على المشى .

وقد سار هذا السحاب حتى حلق على جبل (تعار) ووصل وقت الضحى إلى ملتقى الواديين ، وهناك تنظر فتجد كأن سحابا ابيض تتفلت من بين هذه السحب ، وكأنها كانت محبوسة فهى تبرق - وفى هذا إشارة إلى فرحتها بالحرية وخروجها من هذا الحبس - وهذا كله وقت النهار ٠

وله صوت كحفيف الحيات ، وهو يتبختر فى سيرة تبخترا أو تدفع مؤخرته مقدمته وتستحثها على الإسراع ٠ فلما لم تستجب تسرع هى - أى المؤخرة ٠

صورة بارعة :

لقد برع (خفاف بن ندبة) فى رسم هذا الجانب من الصورة وذلك انه اراد أن يفصل ويوضح منظر السحاب وهو يعلو بعضه بعضا، وكان مؤخرته استبطات مقدمته فاخذت تعدو حتى سبقتها وهكذا ٠٠

فاختار لتوضيح الصورة مشبها به هو تلك الشاة المكسورة الرجل التى لا تقدر على المشى فكان مؤخرتها تحث مقدمتها وتدفعها على السير فهى تنطوى انطواء ولا تمشى ٠٠ وهكذا - تماما - يكون تقلب السحاب٠

وقد حدث من جراء تراكم هذا السحاب وثقله انهمار المطر انهمارا أنبت الكلا والعشب ٠

وإنك لتلاحظ فى هذه الأبيات أن الشاعر استطاع بكل براعة ودقة أن يستخدم كل أدوات التصوير الشعرية التى لا تتاح للرسام هذا بالإضافة للألوان التى يستخدمها الرسام ٠

فقد رأينا فى الصورة الشعرية التى نحن بإزائها : (اللون) فى الكلمات : (صبير) أى سحاب أبيض ، (البلق) سواد وبياض، وغيرهما ٠

كما رأينا الحركة الدائبة فى الألفاظ : (زعزعته ، استطار ، سل يزيف ، ينهمر ...) .

ووجدنا الزمان فى الألفاظ : (العشاء ، أضحى ، نهارا) .

ورأينا الحرص على تحديد أبعاد المكان الذى أصيب بهذا الماء فى: (ذى النخل - مسلحة - الستار - الدونكين - تعار - الواديين).

حتى الصوت وجدناه فى مثل (حسيف) أى صوت كحفيف الحيات . وإذا وازنت بين القصيدتين وهما لشاعر واحد لاحظت :

★ أن الصورة فى القصيدة الأولى أعم وأشمل ، فقد تتبع تلك الظواهر تتبعا دقيقا ، فاستوفت الصورة كل جوانبها ، وتمت ظلالها وألوانها ، وحركاتها فى تنسيق رائع .

★ وهو فى تلك القصيدة كان برما ، غاضبا ، حزينا فكان تراكم السحاب ثقيلا ثقلا يجعله واقفا عن السير والانتقال ، مما تسبب فى سيل جارف عنيف ، مهلك ، مخيف ، لم يدع الأمن فى جانب من جوانب المنطقة كلها ، بل أتى على الأخضر فأهلكه ، حتى الأشجار العالية ، وأخرج الوحوش من مخابئها كارهة ، بل لم يترك فراخ العقاب المسكينة الصغيرة ، وإنما وصل إليها فى مهدها. وهكذا ظهرت عاطفته واضحة فى تلك القصيدة ، فهى عاطفة الغضب والحزن والأسى العميق .

★ أما القصيدة الثانية فتنبىء عن عاطفة الفرح والسرور والبشاشة والتفاؤل ، فها هنا برق وأمطار لكنها مغيثة وليست مدمرة - وكيف لا يفرح وقد دبت الحياة فى أوصال الأرض بهذا الماء !!

أقام بذى النخل ريعانه ....

★ وهنا سحاب ، إلا أنه يسير ويستحث بعضه على السير ، فإن استعصى بعضه عدا الباقى عليه فسبقه .. وهنا ذكر للضحى والنهار، وكل ذلك يبعث على الأمل والتفاؤل ..

لقد برع (خفاف) فى وصف هذه الظواهر الطبيعية براعة تسلكه فى عداد أولئك الوصافين الجاهليين ولا سيما وصف الظواهر المناخية.

ويعد (خفاف) من وصافى الخيل فى الجاهلية ، وبرع كذلك فى هذا الجانب من الوصف ، لكن الشاعر لم ينل حظه من الشهرة التى نالها أولئك المشاهير ، ولعل ذلك بسبب قلة تداول شعره فى المصادر المشهورة اللهم إلا (الأصمعيات والأغانى) (٢٤) .

* * *

امير شعراء الجاهلية يصف الغيث

★ **تعريف بالشاعر :**

هو : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن الحجر آكل المرار بن معاوية بن ثور من كندة .

وكنيته : أبو الحارث ، أو أبو وهب ، أو أبو زيد .

ويلقب بـ (الملك الضليل) ، ويقال له : ذو القروح ، قال الفرزدق :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا
وأبو يزيد وذو القروح وجرول

وأمه : فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، وأخواها : كليب ومهلهل .. من تغلب .

وقد شكوا فى هذه الخئولة ، إذ لم يعرض امرؤ القيس لهما فى شعره كله ، وهما من هما ، يتيه ابن أختهما بشرفهما ومجدهما وكرامتهما . كما أن أحداث حرب البسوس ليس لها أى صدى فى شعره، لا من قريب ولا من بعيد .

---

(٢٤) قمت بإماطة اللثام عن الشاعر ضمن رسالتى للدكتوراه بعنوان (شعر قبيلة بنى سليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى).

★ **مولده ونشأته :**

ككل الجاهليين - لم يعرف عام مولده ويرجحون أنه ولد قريبا من عام ٥٢٦ م وكان جده آنذاك ملكا على كندة .

كان امرؤ القيس أصغر إخوته فنال قسطا وافرا من التدليل ، وقضى وقته بين الشرب والطرب ، ونادمه فى ذلك فتيان أشراف أمثاله.

يقال إنه عشق (عنيزة) ابنة عمه ، لكنه باء بالفشل فى الوصول اليها حتى واتته الفرصة يوم الغدير بدارة جلجل .

وهناك احتال حتى ركب معها على بعيرها ، وقال فى ذلك - فى المعلقة - :

ويوم دخلت الخدر ، خدر عنيزة

فقالت لك الويلات إنك مرجلى

تقول وقد مال الغبيط بنا

عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيرى وارخى زمامه

ولا تبعدينى عن جناك المعلل

لما بلغ حجرا ما فعله ابنه غضب ، ودعا مولى يقال له ربيعة ، فقال له اقتل امرأ القيس ، وائتنى بعينيه ، فذبح جؤذرا فأتاه بعينيه، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن إنى لم أقتله . قال : فانطلق فاذا هو قد قال شعرا فى رأس جبل وهو قوله :

فلا تتركنى يا ربيع لهذه

وكنت أرانى قبلها بك واثقا

فرده إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، فلم ينته ، فطرده أبوه .

طالب ثـأر :

كان ملك الجد قد اتسع ، وبسط نفوذه على وسط الجزيرة ، فولى ابنه حجرا - إبا امرىء القيس - بنى أسد .. لكن بنى أسد تنكـروا لحجر ، ونبذوا طاعته ، وكان قد فرض إتاوة عليهم فرفضوا دفعهـا إليه فما كان منه إلا استباحة أموالهم ، وحبس أشرافهـم ، وإعمـال السيف فى رقابهم ..

ساءت سيرة الملك ، وضاق الناس به ذرعا ، فجمعوا له جموعهم والتقت بنو أسد بكندة ، فانهزمت كندة ، وقتل حجر ، وغنمت بنو أسد أموالهم .. وفى ذلك يقول عبيد بن الأبرص الأسدى :

هـلا سـألت جمـوع كنـ

دة يـوم ولـوا هـاربينـا

كان امرؤ القيس آنذاك مطرودا ، قد طرده أبوه .. فلما بلغـه مقتل أبيه قـال :

(ضيعنى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا ، لاصحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمر ، وغدا أمر) .

ثم قـال :

خليلى ما فى اليوم مصحى لشـارب

ولا فى غـد إذ كان مـا كان مشـرب

ثم آلى الا ياكل لحما ولا يشرب خمرا حتى يثأر لأبيه .

وحاول امرؤ القيس أن يثأر لأبيه ، فسأل بكرا وتغلبـا النصرة فأعانوه فأغار على منازل بنى أسد ، لكن بنى أسد كانوا قد رحلوا عن منازلهم بعد أن أنذرهم (علباء بن الحارث) وبذلك أصاب امرؤ القيس بنى كنانة وهو يحسبهم بنى أسد ، فلما عرف الحقيقة قال :

الا يالهــف نفســـى إثــر قـــوم
هــم كانــوا الشــفاء فلــم يصــابوا

وقاهــم جــدهم ببــنى أبيهـــم
وبالأشـــقين مــا كان العقـــاب

وأفلتهـــن علبـــاء جريضـــا
ولو أدركنـــه صـــفر الوطـــاب(٢٥)

ثم تبعهم فأدركهم ، وقتل فيهم قتلا ذريعا ، وقال :

قـــولا لـــدودان عبيـــد العصـــا
ما غـــركم بالأســـد الباســـل

قـــد قـــرت العينـــان مـــن وائـــل
ومـــن بني عمـــرو ومـــن كاهـــل

نطعنهـــم ســـلكى ومخلوجـــة
كـــرك لأمـــين عـــلى نابـــل

حلـــت لى الخمـــر وكنـــت امـــرءا
عـــن شـــربها فى شـــغل شـــاغل

فاليـــوم اشـــرب غـــير مســـتحقب
إثمـــا مـــن اللـــه ولا واغـــل(٢٦)

---

(٢٥) أفلتهن : يعني الخيل التى كانت تطلبه فلم تدركه ، الجرض والجريض : غصص الموت ، يريد أفلتهن مجهودا يكاد يقضى. صفر : خلا . الوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن ، يريد أنه مات فلم تملأ وطابه ، أو خلا جسمه من الحياة كما يخلو الوطب من اللبن .

(٢٦) السلكى : الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه . المخلوجة : غير المستقيمة . كرك لأمين : مثنى لأم ، يقال : سهم لأم : أى عليه ريش لؤام يلائم بعضه بعضا . النابل : رامى النبل ، يريد : يذهب الطعن فيهم ويرجع كما ترد سهمين على رام رمى بهما .

مقتـــله :

ولما غزا (المنذر بن ماء السماء) كندة هرب امرؤ القيس إلى جبل طيء ، وهناك فكر فى اللجوء إلى ملك الروم ، فاكرمه ونادمه.. حتى وشوا به عنده ، وحذروه من غدرِه وخيانتـه ، وأوغروا صـدره عليه ، فاغرى به رجلا يقال له (الطماح بن قيس الأسدى) - كان امرؤ القيس قد قتل أخاه - فأعطاه الملك حلة منسوجة بالذهب، مسمومة، وكتب إليه : إنى قد بعثت إليك بحلتى التى كنت ألبسها يوم الزينة ، ليعرف فضل منزلتك عندى ، فإذا وصـلت اليك فالبسـها على اليمن والبركة ، واكتب إلى من كل منزل بخبرك . فلما وصلت إليه الحلة اشتد سروره بها ، ولبسها ، فاسرع فيه السم وتنفط جلده .

ولذلك دعته العرب (ذا القروح) ..

شاعرية امرىء القيس :

لم يحظ شاعر عربى - على مر العصور - بما حـظى به امـرؤ القيس من اهتمام بشعره .

وقد جعله علماء البصرة رأس الطبقة الأولى .. وقرنه ابن سلام بزهير والنابغة وأعشى قيس . لكن معظم النقاد والشعراء صوتوا لصالح امرىء القيس .

- فهذا لبيد بن ربيعة العامرى : سئل من أشعر الناس ؟

فقال : الملك الضليل ، يعنى (امرأ القيس ...) قيل له : ثم مـن :

قال : الشاب القتيل ، يعنى طرفة .. قيل له : ثم من ؟

قال : الشيخ أبو عقيل ، يعنى نفسه .

- وقال الحطيئة ؟

امرؤ القيس أشعر العرب حيث يقول :

فيالك من ليل كأن نجومه

بكل مغار الفتل شدت بيذبل

- وقيل لكثير من أشعر العرب ؟

فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب .

- وقيل لكثير : من أشعر العرب ؟

فقال : لم أر لأحد من الشعراء بعد امرىء القيس ما لزهير والنابغة والأعشى فى النفوس .

- وقد فضله - على - كرم الله وجهه - على سائر شعراء الجاهلية بقوله : رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة .

- وقال ابن سلام :

(إن امرأ القيس سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب ، واتبعته فيها الشعراء ، منها :

استيقاف صحبه ، والبكاء على الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض ، والخيل بالعقبان والعصى ، وهو أول من قيد الأوابد وأجاد فى التشبيه) .

- وقد ذكر الآمدى - فى الموازنة - الأسباب التى جعلت امرأ القيس مقدما على الشعراء فقال :

(... لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى ، وبديع الوصف ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام ، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن

تشتمل من ذلك على نوع وانواع ، ولولا لطيف المعانى واجتهاد امرىء القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر شعراء اهل زمانه ...) الخ .

- وقال يونس النحوى :

قدم علينا ذو الرمة من سفر ، وكان احسن الناس وصفا للمطر فسئل عن احسن شعر فى وصف المطر ، فاختار قول امرىء القيس :

ديمــة هطــلاء فيهــا وطــــف
طبـــق الأرض تحـــرى وتـــــدر

الأبيات ... التى سنذكرها بعد قليل :

- وقال خلف الأحمر :

لم أر بيتا افاد وأجاد ، وساد وزاد ، وقاد وعاد ، ولا أفضل من قول امرىء القيس :

لــه أيطــلا ظــبى ، وســاقا نعامــه
وإرخــاء ســـرحان وتقــريب تتفــل

- وقال بشــار :

لم ازل أحسد امرأ القيس على قوله :

كأن قلــوب الطــير رطبــا ويابســـا
لــدى وكرها العناب والحشف البالى

حــتى قلــت :

كأن مثــار النقــع فــوق رءوســـنا
واسيافنا ليــل تهــاوى كواكبـــه

هذا قليل من كثير مما قيل فى امرىء القيس وشعره ..

★★★

امرؤ القيس يصف الغيث

١ ـ فى قصيدته الرائية

حدث الاصمعى عن ابى عمرو بن العلاء أنه سأل ذا الرمة فقـال لـه : أى الشعراء الذين وصفوا الغيث اشعر ؟

فقال : قول امرىء القيس.قال ابو عمرو بن العلاء:فانشدنى قوله:

ديمـة هطـلاء . . . .

والنقاد يجمعون على أن هذه القصيدة من أبلغ واروع ما جـاء فى وصف الغيث ..

يقـول امرؤ القيس :

ديمـة هطـلاء فيهـا وطـف
طبـق الأرض تحـرى وتـدر (٢٧)

تخـرج الـود إذا مـا أشـحذت
وتواريـه إذا مـا تعتكـر (٢٨)

وترى الضـب خفيفـا ماهـرا
ثانيـا برثنـه مـا ينعفـر (٢٩)

---

(٢٧) ديمة : سحابة مطيرة دائمة السح فى يوم وليلة . هطلاء : مسبلة فيها وطف : أى لها حواشى وأهداب متدلية من جانبيها حتى لتكاد تمس الأرض . طبق الأرض : أى تعم الأرض حتى تصير كالطبق . تحرى : تتحرى بمعنى تقصد وتعمد . تدر : أى تصب.

(٢٨) تخرج الود : الوتد . أشحذت : أقلعت وكفت . تعتكر : تشتد.

(٢٩) البرثن : الاصبع . ما ينعفر : أى ما يصيبه التراب .

وتـرى الشـــجراء فى ريقهــــا
كـرعوس قطعـت فيهـا الخمـــر (٣٠)

ســاعة ثم انتحاهـــا وابـــــل
ســاقط الأكنـــاف واه منهمـــــر (٣١)

راح تمريـــه الصـــبا ثم انتحـــى
فيـه شـؤبوب جنـوب منفجـــر (٣٢)

ثج حــتى ضـــاق عـن آذيـــه
عرض خيـم فخفـــاف فيســــر (٣٣)

قـد غـــدا يحملـنى فى أنفـــه
لاحـق الإطلـــين محبـــوك ممــر (٣٤)

إنه مطر غزير ، دائم ، مستمر الهطول يوما وليلة ، وقد عم الأرض وفاض به الوادى .

---

(٣٠) الشجراء : الغابة كثيرة الشجر . ريقها : مستهلها وهو أول المطر . الخمر : جمع خمار وهو غطاء الرأس .

(٣١) انتحاها : قصدها واعتمدها . الوابل : المطر الشديد . الأكناف: النواحى . الواهى : المتشقق . منهمر : سائل شديد الوقع .

(٣٢) راح : عاد فى آخر النهار . تمريه الصبا : تستدره ريح الصبا . شؤبوب جنوب : أى مطر ريح الجنوب وهى التى تقابل الصبا . منفجر : غزير شديد .

(٣٣) ثج : صب . الآذى : المـوج . عرض : رحاب . خيم ، خفاق ، يسر : أماكن .

(٣٤) أنفه : أوله . لاحق الأيطل : ضامر الخصر . المحبوك : المدمج الشديد الخلق . الممر : المفتول العضل غير مترهل اللحم .

وهذه السحب دانية قريبة علامة على استمرار هذا الهطول .. لقد عمت المياه البقاع .

وهاهو (الضب) قد خرج من جحره رغما عنه ، إذ سال الماء ودخل جحره ، خرج الضب مسرعا ، يسبح على الماء ، يثنى برثنه ، ويبسطها تماما كما يفعل السباح الماهر ، باسطا ذراعيه وقابضا لهما .

" إلا ما أبرع هذا الضب !! ، وما أجوده فى السباحة !! .. إنه لا يلوث جسده بالطين ، لأنه يعوم على الماء عوما ، والماء غمر الأرض وصار مرتفعا ، فهو لسرعته ، مع غزارة الماء يمس الأرض مسا رفيقا .

أما الأرض المشجرة فإنك لا ترى منها أعوادها ، وإنما ترى أعاليها فقط ، لقد كساها الزبد فهى مثل رءوس غطيت بالخمر ..

صورة بارعة لأمير الشعراء الجاهليين ..

ويعقب هذه الهجمة العنيفة من الغيث هدوء فى الجو ، وراحة للمطر ..

وما هو إلا أن جاء العشى وإذا بالسحاب يتجمع مرة أخرى ويتراكم بعضه فوق بعض — ثم أتت ريح الصبا بكم من السحب ، وأتت ريح الجنوب فأضافت إلى السحاب مجموعة أخرى منه .

فكم تحمل هذه كلها من الأمطار ؟ ..

إنها أمطار غزيرة أخذت تنصب انصبابا حتى غمرت الأرض مرة أخرى ، وصار لهذا الماء وكثرته أمواج صاخبة ، ونتج عن ذلك سيل منحدر ضاقت به خيم وخفاف ويسر .

★★★

امرؤ القيس يصف الغيث

٢ - فى المعلقة

يقول أمير الشعراء فى العصر الجاهلى من معلقته :

أصاح تـرى برقـا أريـك وميضـه
كلمـع اليـدين فى حـبى مـكلل (٣٥)

يضىء سـناه أو مصابيح راهـب
أمـال السـليط بالذبـال المفتـل (٣٦)

قعـدت لـه وصحبتى بـين ضارج
وبـين العـذيب بعـد ما متأمـلى (٣٧)

عـلى قطـن بالشيم أيمـن صوبه
وايسـره عـلى السـتار فيذبـل (٣٨)

فأضحى يسح الماء حـول كتيفة
يكـب عـلى الأذقـان دوح الكنهبـل (٣٩)

---

(٣٥) وميضه : لمعانه . كلمع اليدين : حركتهما . الحبى من السحاب: المتراكم وكذلك المكلل اى بعضه فوق بعض .

(٣٦) السنا : الضوء . السليط : الزيت . الذبال : الفتائل . اماله هنا : بمعنى رعى .

(٣٧) ضارج والعذيب : موضعان . بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد أو : يا بعد ما تأملت اى تبينت . يقول : إنه نظر إلى هذا السحاب من مكان بعيد فتعجب من بعد نظره .

(٣٨) قطن : جبل فى أرض بنى أسد . وكذلك الستار ويذبل . الشيم: النظر الى البرق أين هو . الصوب : نزول المطر .

(٣٩) يسح : يصب . كتيفة : موضع . الأذقـان : شجر . يكب عـلى الأذقان : يسقط ويقتلع الأشجار فيقلبها على رؤوسها . الدوحة : الشجرة العظمة وجمعها دوح . الكنهبل : ضرب من شجر البادية .

ومـــر على القنـــان مـن نفيـــانه

فـانزل منـــه العصـــم من كل منـزل(٤٠)

وتيمـاء لـم يتـرك بهـا جـذع نخـلة

ولا اطمــا الا مشيـــدا بجنـــدل(٤١)

كـان ثبـيرا فى عـــرانين وبلـــه

كبـــير انـاس فى بجـــاد مزمـــل(٤٢)

كان ذرا راس المجيمـــر غـــدوة

مـن السيـــل والغثـاء فلـكة مغـزل(٤٣)

والقـى بصحـــراء الغبيـط بعـاعـــه

نزول اليمـانى ذى العيـــاب المحمـل(٤٤)

---

(٤٠) القنـــان : جبل بنى أسد . النفيـــان : أصله ما تطاير من الرشاء عند الاستقاء والمـــراد هنا : ما تطاير من قطـر المطر . العصم : جمـع أعصم وهو التيس الجبلى الذى يخالط بياضه حمرة .

(٤١) تيماء : قرية بالحجاز . الأطم : القصر . جندل : صخر .

(٤٢) ثبير : جبـل بمكة . العرنين : الأنف . الوبل : المطر العظيم الشديد الوقـع . البجـاد : كسـاء مخطط . المزمل : المغطى بالثيـاب .

(٤٣) الذرا : جمـع ذروة وهى أعلا الشىء . المجيمر : أرض لبنى فـزارة . الغثـاء : ما يحمله السيل . فلكة مغزل : ما استدار فـوق رأسـه .

(٤٤) صحـراء الغبيط : أرض بني يربوع . بعاعه : ثقله . العياب : الحقـائب .

كـان مـكاكى الجـــواء غـــدية
صبحـن ســلافا من رحيـق مفلفـل (٤٥)

كـان السبـــاع فيـــه غـــرقى عشيـــة
بارجـــائه القصـوى أنابيـش عنصـل (٤٦)

« كانت الطبيعة الف امرىء القيس وتوام روحه، متاع بصره، ومجال فكره ، هام فى محاسـنها ، وتفيـا ظلالها ، صـاد وحشـها ، والف شعابها ، وفيهـا ومعهـا امضى أكثر أيامه واجملها ، حتى أصبحت جزءا من ذاته ، وخدينـا لحيـاته ، تاملهـا مليـا فادرك خفـاياها ، وفتحت له قلبهـا فعـرف اسـرارها ، وحلت من قلبـه مـكانا وسيعا ، فتغنى بهـا .. »(٤٧) .

كان الحديث عن المطـر فى المعقلـة فى هذه القطعة الرائعـة ، التى سار فيها على نحو منطق بديع ، وفكر متسلسل رتيب .

وقد استهل القطعـة بوصف وميض البرق وتالقـه ، ثم تراكـم السحاب بعضـه فـوق بعض . وشبه لمعـان البرق وتحـركه بتحـرك

---

(٤٥) مكاكى : جمـــع مكاء وهو طائر . الجـواء : البطن من الأرض العظيم ، وقيـل هو ما اتسـع من الأرض . غدية : تصغير غدوة أو غـداة .
صبحن : شربن من الصبوح . السلاف : أول ما يعصـر من الـخمر . المفلفل : أى القى فيه الفلفل .

(٤٦) أنابيش عنصـل : جذور البصـل البرى . الأرجاء : الجوانب والنـواحى .

(٤٧) امـرؤ القيس ، حياته وشعره ص ٢٧٠ ، د. الطاهر مكى . وقد نقـله من : أمير الشعراء فى العصر القديم ص ٣٨٠ .

اليدين ، أو كأنه مصابيح الرهبان التى يتوهج منها الضوء بصب الزيت عليها . يريد : أن تحريك البرق يحكى تحرك اليدين ، وضوءه مثل ضوء المصباح . لقد أغرى هذا المنظر امرأ القيس فجلس يتأمله ومعه أصحابه .. أخذوا يتأملون البرق والسحب وتتابع الأمطار .. ويا لبعد ما رأى !!

لقد نزل المطر منهمرا فشمل جهات عديدة مترامية ، فكان يمينه على جبل قطن ، ويساره على جبل الستار ويذبل .

وها هو لغزارته غطى ما حول (كتيفة) فقلب أشجار الكنهبل رأسا على عقب رغم قوتها ..

ومر على جبل (القنان) بالقليل منه فاكره الوعول على الخروج من أماكن قرارها .

وحتى جذوع النخل فى قرية تيماء لم يترك منها جذعا قائما ، ولم يبق بناء مهما كان قويا ومهما كانت قوة صخوره التى بنى بها .. لم يبق بناء الا هدمه .

وهذا جبل (ثبير) حين غطاه الماء الغزير ، والغثاء الأسود ، ولم يترك منه سوى رأسه ، فهو يشبه شيخا متزملا بكساء مخطط من برود اليمن .

وأما (رأس المجيمر) فقد أزاح ما عليها من تراب ونبات اذ أزاح السيل طبقة رملية بأكملها وكان هذه الأكمة يوم أن نزل بها السيل فأحاط بها من غثائه فى استدارتها مثل فلكة المغزل ..

لقد فعل فعلته هنا ثم تحول الى (صحراء الغبيط) فأنبت الكلأ وضروب الأزهار وألوان النبات ، فصار نزول المطر به كنزول التاجر اليمانى صاحب العياب المحمل من الثياب حين نشر ثيابه يعرضها على المشترين .

وهو يشبه نزول المطر بنزول التاجر ، وشبه ضروب النبات الناشئة من هذا المطر بصنوف الثياب التى نشرها التاجر .

لقد بعثت الحياة فى هذه الاماكن ، وانتشرت الأزهار والنباتات هنا وهناك ، مما جعل الطيور - طيور الجواء - تغرد فى الصباح وكأنها نشوى سكرانة ، تناولت كأسا صبوحا من شراب أضيف اليه من التوابل ما جعله مغريا باعثا النشوة والطرب ..

وكانت السباع قد أصابها نصيب من عبث السيل ، فغرقت فيه وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البرى »

مــــوازنة :

لقد بدا امرؤ القيس فى قصيدته الرائية هادىء النفس ، رضى البال ، خلى الفؤاد ، فانعكس ذلك على أبياته ..

فالمطر هنا هادىء حينا ، غزير حينا آخر ، لكنه فى العينين ليس مهلكا مدمرا .. أرأيت الى الضب - حتى وهو فى المساء - ينظر اليه امرؤ القيس فيراه سابحا عائما ، مسرعا ، وكأنه سباح حاذق ماهر .. يجرى الى حيث الأمن والطمأنينة ..

وامتدادا لمشاعر البهجة والطمأنينة وهدوء البال نحى الشاعر البرق والرعد عن الصورة ، لما فيهما من ذعر وهلع ..

امــا فى المعلقـــة :

فقد تتبع رحلة السحاب من بدايتها الى نهايتها ، فذكر البرق والرعد ، وهطول الأمطار حتى صارت سيلا .. لم يترك نباتا ولا حيوانا ولا طائرا الا وأفزعه .. لقد أكره التيس الجبلى - الذى يسكن أعالى الجبال - على النزول - كيف كانت قوة هذا المطر وغزارته اذا ؟؟

غير أن الشاعر وجد أن هذا التدمير والاهلاك اعقبه انبات وامراع فكان قوله :

والقى بصحــراء الغبيـط • • البيت

ووجدنا الطير وقد سكرت وانتشت ، وطربت وغردت ••

لكنه بعد ذلك ذكـر السباع وغرقها •• فان صح هذا الترتيب فى الابيات فانه يدل على قلق واضطراب فى نفسية الشاعر ••

غير أن الأقرب الى القبول قوله :

كـان السبـاع فيـه غــرقى • • البيت

وُضـع فى غير مكانه •••

على أية حــال فان امــرأ القيس يعد من أبرع من وصف هــذه الظواهر واغرم بوصفها ، وليس هذا كل ما قالــه ، بل ان له قصــيدة ثالثة يصف فيها المطــر وهى (ضــادية) وان كان البعــض يرى أنهــا لأبى داؤد الايادى يقول فيهــا :

اعـــــنى عـلـى بـرق أراه وميــض
يضــىء حبيـــا فى شمــاريخ بيض
ويهـــدا تـارات سنـــاه وتــارة
ينــوء كتعتـــاب الكســير المهيـض

الى آخــر ما قال فيهــا ••

❋ ❋ ❋

القسم الثاني

النثر

النثر الجاهلى(*)

ونقصد بالنثر : النثر الفنى ، وهو : الكلام الذى يخضع لقوانين معينة ، بحيث تكون أفكاره منظمة ، معروضة عرضا جذابا ، حسنة الصياغة ، جيدة السبك ، جارية على قواعد النحو والصرف ... فان اختلت هذه الشروط أو بعضها فلا يسمى (نثرا فنيا) ولا يعنى به الأدب .

والنثر الجاهلى كان عماده اللسان ، اذ كانت لهم مجالس سمر ، يتجاذبون فيها أطراف الحديث ، ويتطرقون فيها الى أمجاد القبيلة ومفاخرها ، وكان فيهم الكثير الذى يملك ناصية القول ، فيعرض ما يروق له ، ويمتع السامعين بأسلوب أخاذ .

ولعل هؤلاء الناثرين كانوا أكثر عددا من الشعراء ، غير أنه لم يصلنا من هذه المجالس والمسامرات ما يقفنا على خصائص تلك المحاورات والمسامرات ..

(أ) الخطابة

وأول المجالات الأساسية للنثر ، وأهمها ، وأوسعها انتشارا فى المجتمع الجاهلى : الخطابة ..

فقد كان لكل قبيلة خطباؤها الرسميون المتحدثون باسمها فى المحافل والأندية أمام الملوك والأمراء وسادة القبائل فى وفادتها

(*) راجع : التوجيه الأدبى ص ١٤ ، العصر الجاهلى ٣٩٨ ، فى تاريخ الأدب الجاهلى د. على الجندى ٢٥٨ ، الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ٥٨ .

عليهم ، وكان هؤلاء الخطباء يمثلون الألسنة الناطقة باسم قبائلهم الى جانب الشعراء .

بل ان بعض الرواة القدماء لاحظوا أن الخطابة فى أواخر العصر الجاهلى تفوقت على الشعر ، واحتلت مكانة أرفع من مكانته(١) ..

يقول الجاحظ ـ نقلا عن أبى عمرو بن العلاء ـ راوية البصرة الكبير :

« كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم .

فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »(٢) .

وقد افتخر الشعراء الجاهليون والمخضرمون بخطبائهم فى الجاهلية ، يقول (حسان بن ثابت) مفتخرا(٣) :

ان خالى خطيب جابية الجو

لان عند النعمان حين يقوم

وأبى فى (سميحة) القائل الفا

صل يوم التفت عليه الخصوم

---

(١) الروائع من الشعر العربى ص ٥٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤١/١

(٣) البيت الأول فى البيان والتبيين ٣٦٠/١ ، وهما ضمن أبيات فى البيان والتبيين ٣٢٥/٢ ، ٥٨/٤ وهى فى الديوان ص ٤٣٠ ط دار الكتاب العربى بيروت .

ويقـول(٤) :

وجدى خطيب النـاس يوم (سميحة)

وعمـى ابن هند مطعـم الطير خـالد

ويقول الأعرج - وتنسب أيضا الى عمرو بن الاطنابة - مفتخرا بقومه(٥) .

إنى من القـوم الذين إذا انتـدوا

بـدأوا بحـق الله ثـم النائـل

ويقول قيس بن عاصم المنقري :(٦)

إنـى امـرؤ لا يعتـرى خلقـى

دنـس يفنـده ولا أفـن

مـن منقـرفى بيـت مكـرمة

والأصـل ينبـت حولـه الغصـن

خطبـاء حـين يقـول قائلهـم

بيض الوجـوه مصـاقع لسـن

لا يفطنـون لعيـب جـارهم

وهـم لحفـظ جوارهـم فطـن

---

(٤) الديوان ص ١٦٨

(٥) البيان والتبيين ٢٧١/٢

(٦) نفسه ٢١٩/١ ، وقيس بن عاصم شاعر فارس مخضرم ، صحب النبى - ﷺ - فى حياته وعاش بعده زمنا ، وهو أحد من وأد بناته فى الجاهلية ، وممن حرموا الخمر فى الجاهلية ، ومنه تعلم (الأحنف بن قيس) الحلم والأفن: ضعف الرأى والعقل .

دواعى الخطـابة فى الجاهليـة ·

هناك دواع خاصـة بالعرب الجاهليين دعت الى بلوغ الخطـابة درجـة من النضـج والكمال ـ

ومن أهـم هـذه الدواعى :

* الاسـتعداد الفطرى ·

فقـد أوتى العربى موهبـة الارتجال ، اذ يخطب فينساب الـكلام انسـيابا دون معانـاة أو مكابـرة ·· يقـول الجاحـظ فى ذلـك عن العـربى :(٧)

(يصرف همه الى الكـلام ، والى رجز يوم الخصـام ، أو حين يمنح على رأس بير ، أو يحـدو ببعير ، فما هو الا أن يصرف همـه الى جملة المذهب ، والى العمود الذى اليـه يقصـد ، فتأتيـه المعانى ارسـالا ، وتنثال عليـه الألفاظ انثيالا ···

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكـلام الجيـد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليـه أقدر وأقهر ، وكل واحـد فى نفسـه أنطق ، ومكانه من البيـان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، أو يحتاجوا الى تدارس ···

ولم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصـل بعقولهم من غير تكلف ولا قصـد ، ولا تحفظ ولا طلب ـ

★ حاجتهم الضرورية الى من يتحدث عنهم ، نظرا لشيوع الأميـة بينهـم ، مع اضطرارهم الى التنقل ، فاستعانوا بالخطابة لتقوم مقـام الكتابة فى عقد المحالفات والمصالحات ·

---

(٧) البيان والتبيين للجاحظ ·

★ بعض القبائل كان حظها فى الشعر ضعيفا فاستعاضت بالخطابة عنه فى مجالات مختلفة ٠

خطبة قس بن ساعدة الإيادى(٨) ٠

عن الشعبى عن ابن عباس قال :

قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله - ﷺ - ، فلما فرغوا من شأنهم ، قال لهم (هل فيكم أحد من إياد ؟) ٠

قالوا : نعم ٠

قال : (أفيكم أحد يعرف : قس بن ساعدة الإيادى ؟) ٠

قالوا : نعم ، كلنا نعرفه ٠

قال : (فما فعل ؟) ٠

قالوا : هلك ٠

قال - ﷺ - : (ما أنساه بسوق عكاظ فى الشهر الحرام يخطب الناس على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله ٠

قال - ﷺ - : (كيف سمعته يقول ؟) ٠

قال : سمعته يقول :

يا أيها الناس : اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ٠

---

(٨) الخطبة مذكورة فى مصادر كثيرة منها : التذكرة الفخرية للاربلى ص ٤٢ ، وهى فى جمهرة خطب العرب ٣٦ ، وخبر قس وخطبته فى السيرة النبوية ، وكذلك فى الأغانى (دار) ٢٤٦/١٥ وما بعدها ٠

آيات محكمات : مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ونجول تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج .

مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فاقاموا ، أم حبسوا فناموا .

يا معشر إياد : أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذى لم يشكر ، والظلم الذى لم ينكر .

اقسم قسما بالله أن لله دينا هو أرضى له من دينكم هذا ، ثم انشد قس :

فى الذاهبين الأولين من
القرون لنا بصائر
لما رايت موارداً
للموت ليس لها مصادر
ورايت قومى نحوها
يمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى ولا
يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة
حيث صار القوم صائر

ترجمة وتعليق :

الخطيب هو : قس بن ساعدة الإيادى . اختلفت كتب التراجم حوله ، فليس هناك اتفاق أو شبهه بين المؤرخين حول حياته ، وانما اضطربت الروايات اضطرابا بينا .

وقد أورد الأصفهانى : أنه لما قدم وفد إياد على النبى - ﷺ - قال : ما فعل (قس بن ساعدة) ؟

قالوا : مات يا رسول الله ٠

قال : كانى انظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله ٠ قال : كيف سمعته يقول ؟ ٠٠

فذكر الخطبة ٠

لكن المشتغلين بعلوم الحديث ذهبوا إلى أن هذا الحديث ضعيف ٠

يقول ابن حجر العسقلانى : طرق هذا الحديث كلها ضعيفة ٠

ويجزم ابن الجوزى بأن حديث قس من جميع جهاته باطل ٠

ولو نظرت فى الخطبة المذكورة ، المنسوبة الى (قس) لوجدت أن أفكارها قد سيقت فى إطار إسلامى بحت ، بل إن بعض العبارات يتفق مع بعض آيات القرآن الكريم وذلك كقوله :

(وسماء ذات أبراج) ، وفى إحدى الروايات : (إنكم لتأتون من الأمر منكرا) ، (جبال مرساة - أرض مدحاة) ٠

وقد تعددت روايات هذه الخطبة مما يبعث على الشك فى نسبتها إلى (قس) والعصر الجاهلى ٠

وقد وقف الدكتور طه حسين أمام هذا الخطيب - ضمن موقفه من النثر - فقال : (وحياة الناثرين من الجاهليين مضطربة كحياة الشعراء فقس بن ساعدة قد عمر سبعة قرون أو ثلاثة قرون ، أو قرنين ونصف قرن، وهي فيما يظهر أقل سن يتفق عليها المعتدلون ٠) ٠

ثم نفى أن تكـون هناك خطابة جاهلية لأن (أهل البادية كانوا فى حرب وغزو وخصومات ، وهذا يدعو الى الحوار والجدل ، ولكنه لا يدعو الى الخطابة ، فالخطابة تحتاج الى الاستقرار والثبات والاطمئنان إلى الحيـاة المدنيـة المعقدة)(٩) ٠

لكننا لا ننكر الخطابة برمتها ، وإنمـا نقف ازاء هـذه الخطب وننظر فيها وفى ذهننا العصر الجاهلى بثقافته وعاداته ٠

وعلى هـذا الأساس شككنا فى خطبة قس هـذه ، وضعفها علماء الحـديث ٠

ثم إن هنـاك دواعى لتلك الخطـابة فى الجاهليـة ٠٠ فمنهـا : استعاضتهم بها عن فقدان ملكـة الشعر عند بعض قبائلهم ٠ ثم حاجتهم لمن يتحـدث بلسانهم فى المحافل ٠٠٠ الخ ٠

٢ ـ خطبة أبى طالب فى زواج الرسول (صلى الله عليه وسلم) :
قال أبو طالب :

الحمد لله الذى جعلنا من زرع ابراهيم ، وذرية اسماعيل وجعـل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ٠

ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ، ومجدا ونبـلا ، وإن كان فى المـال قل ، فإنما المـال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى ٠

٣ ـ خطبة عبد المطلب ـ جد الرسول ـ بين يدى سيف بن ذى يزن :

حين انتصر سيف بن ذى يزن على الحبشة أقبلت الوفـود تهنئـه

---

(٩) فى الأدب الجاهلى ص ٣٣١

وكان من ضـمن وفد قريش عبد المطلب بن هاشم الذى قال :(١٠)

إن الله قد أحلك أيها الملك محـلا رفيعا ، صعبا منيعا ، شامخا باذخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومتـه ، وعزت جرثومتـه ، فى أكـرم موطن ، وأطيب معدن ٠

فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب ، وربيعهـا الذى به تخصب وأنت أيها الملك رأس العرب الذى له تنقـاد ، وعمودهـا الذى عليـه العماد ، ومعقلها الذى إليـه يلجـأ العباد ، فسلفك لنا خير سـلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلم يخمـل من أنت خلفـه ولن يهلك من أنت سـلفه ٠

نحن أهل حرم الله وسـدنة بيتـه ، أشخصنا إليـك الذى أبهجنا لكشـفك الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفود التهنئة ، لا وفود المرزئة ٠

*** خصائص الخطابة الجاهليـة عموما :**

١ - من حيث الأفكـار :

كانت أفكـار الخطب سـاذجة فطرية تتفق وبساطتهم ٠٠ وغالبـا ما يعرض الخطيب أفكاره دون تأييدها بالدليل والحجة والبرهان ٠

تنم الخطب الجاهلية عن فكر محدود ، وتجـربة ذاتية فردية ، ذلك لأن تنقلاتهم واتصالاتهم فى نطاق شـبه الجزيرة فقط ٠ كما أدى إلى ذلك ارتجالهم فجل خطبهم - ان لم تكن كلها - مرتجلة ٠

٢ - موضـوع الخطبة :

لم تكن الوحـدة الموضوعية متحققة فى الخطبة الجاهليـة ، إذ

---

(١٠) الأغاني (دار) ٣١٣/١٧

نجـد الـخطيب وقد سـاق عـدة موضوعات ينتقل من أحدها إلى الآخر فى صـورة قفـز .

كما أن مقـدمة الخطبة تكـاد تكـون مفتقـدة ، وإنما يفاجئنـا الـخطيب بعرض الموضـوع الرئيسى فى خطبته .

٣ - قصر الجمـل :

جاءت معظم خطبهم فى فقر قصيرة ، والجملة غالبا ما تتكون من مبتدأ وخبر فقـط ، أو فعل وفاعل فقط ، متغافلين بقية مكونات الجمل ملبسين ذلك ثوب الحكمـة .

وذلك مثل قول أكثم بن صـيفى :

(الصـدق منجاة ، والكذب مهواة ، والسر لجاجـة ، والحـزم مركب صـعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى ، والعجـز مفتاح الفقـر ....) .

٤ - اتسمت خطبهم بالإيجاز وعدم الاطالة ، وهذا مما يتفق وطبيعتهم ..

أما تلك الخطب الطويلة التى أوردها ابن عبد ربه فى العقد الفريد فقـد شـكوا فى نسبتها الى العصر الجاهلى .

٥ - الجمع بين الشـعر والنثر :

حرص معظم خطباء الجاهليـة على أن يضمنوا خطبهـم أبياتا من الشعر من تاليفهم ، أو اقتباسا من غيرهم . وقد رأينا كيف طعم (قس بن سـاعدة) خطبته تلك الأبيات التى جـاءت بمثابة موجـز لبعض ما عرض - وهذا مما يساعد على حفظها .

٦ - أسـلوب الخطبة والفاظها .

كانت الأساليب متناسبة مع موضوع الخطبة ، ففى خطب الحروب تكاد تسمع دوى المدافع ، وصليل السيوف من خلال الفاظ الخطبة .

وكانوا يتخيرون الألفاظ الرقيقة ، وينسقون بينها بما يتلاءم وجو الخطبـة •

٧ ـ كثرة السـجع •

عمد الجاهليون إلى الإتيان بخطبهم فى صورة مسجوعة ، حرصا من الخطيب على تثبيت الخطبة فى أذهـان السـامعين •• وقد رأيت كيف غلب السـجع على خطبة (قس) التى سـقناها •• ومـع ذلك لا تكاد تشعر بتكلف فى سوق هذا السجع وغيره من المحسنات اللفظية •

لقد امتاز الأسـلوب بقـوة الأسر ولذلك لم يكن غريبا أن يقـول الرسول ـ ﷺ ـ بعد سماعه بعضهم : (ان من البيان لسحرا) وبدهى أن هذا البيان الساحر لم يكن خاصا بهـذا الخطيب الـذى قال عنـه الرسول ذلك • وإنما هو شىء عـام بين الخطبـاء إذ ذهبوا جميعـا مذهب التجويد والتحبير حتى يستميلوا الأسماع ويخلبوا الألباب(١١) •

* * *

(١١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى د/ شوقى ضيف ص ٣٨

(ب) الوصـايا

هى فن قولى بليغ مؤثر ، صـادر من رجـل يسـمع له ، فهـو إما أب وإما أم ، وإما سـيد فى قومه ٠٠ يسوقها لينتفع بها من توجه إليهـم ٠٠

وهى لون من الخطابة الا أنها توجـه الى جماعة قليلـة أو فرد وخاصـة عندما يشـعر الموصى بدنو أجلـه ٠

أما الخطبة فيقصـد بها قوم لا على سـبيل التعيين والتخصيص والخطب إنمـا تكـون فى المشـاهد والمجامـع ، والأيام والمواسـم ، والتفاخر والتشاجر ، ولدى الكبراء والأمراء ، ومن الوفود فى أمر مهم ، وخطب ملـم ٠

والوصايا بخلافها فى كل ما ذكر ، فلا تكون إلا لقوم مخصوصـين فى زمن مخصوص ، على شىء منصوص ، وكثيرا ما كانت تصدر عن شخص لعائلته ، أو سيد لقبيلته ، عند حلول مرض مخاطر ، أو محاولة نقله أو ما شابه ذلك)(١٢) ٠

نمـاذج للوصـايا الجاهليـة

١ - وصـية ذى الإصـبع العدوانى لابنـه أسـيد :

أحس (ذو الاصبع) يدنو أجله فأوصى ابنه قائلا :(*)

(يا بنى ٠٠ إن أباك قـد فنى وهـو حى ، وعاش حتى سـئم العيش ٠٠ وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحفظ عنى :

---

(١٢) بلوغ الأرب ١٥٢/٣

(*) راجع الأغانى (دار) ٩٨/٣ ، ٩٩

الن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبا ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك) .

ومما لا شك فيه أن هذه الوصية احتوت على مجموعة من القيم الأخلاقية الرقيقة التى كان يتمتع بها الموصى فى حياته ، وبها صار سيدا فى قومه ..

إنه يدعو ابنه إلى :

لين الجانب ، التواضع ، تجنب الأنانية وحب الذات ، وإكرام الصغير والكبير على السواء ، التمسك بالمحافظة على الشرف وحماية العرض ، إغاثة المستغيث ، إعزاز الجار ، إكرام الضيف ، الترفع عن مد يد الحاجة الى أى أحد .

فإذا ما توافرت هذه الصفات صرت بحيث يلجأ إليك الناس ويستعينون برأيك ، وبذلك صرت سيدا ..

إن الأب حريص هنا على بيان مؤهلاته التى استحق بها سيادة قومه ، وهو يريد لابنه أن يبلغ ما بلغه ، فوصاه هذه الوصية التى جمع فيها خلاصة خبرته وتجربته فى الحياة .

وقد ساقها فى أسلوب سهل سلس ، معتمدا على السجع والإيقاع الموسيقى الآسر ، والمعانى واضحة لا غموض فيها ولا التواء ..

والعاطفة صادقة ..

٢ - أمامة بنت الحـارث توصى ابنتها ليلة زفافها :

(أى بنية : ان الوصـية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل .

أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منـه خـرجت ، وخلفت العش الذى فيـه درجت ، إلى بيت لم تعرفيه ، وقرين لم تالفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبـدا .

واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا .

أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة ، وحسـن السـمع لـه والطـاعة .

وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينـه منـك على قبيـح ، ولا يشـم إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضـبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشـمه وعياله وملاك الأمـر فى المـال حسـن التقـدير ، وفى العيال حسـن التـدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمـرا ، ولا تفشـين له سرا فإنك إن عصـيت أمره أو غرت صـدره ، وإن افشيت سره لـم تامنى غدره ... ثم اياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما والكـآبة بين يديه اذا كان فرحـا) .

هـذه أم عاقلة حكيمة ، ترجـو لابنتها حيـاة هادئة مسـتقرة ، ولبيتها الود والرحمة ولا يتأتى ذلك إلا بزوجـة تعرف واجباتها تجـاه زوجهـا .

لقد حرصت الأم على أن تزود ابنتهـا بنصـائح معـدودة حتى لا تنساها ، الأولى كـذا ، والثانية كـذا ٠

وجـاءت الوصـية فى ألفاظ واضـحة لا غموض فيها ، وكـذلك المعانى لا تعقيـد فيها ولا التـواء ٠٠ والعاطفة القوية الصادقة لا شـك فى وضوحها ٠٠ وتتميز هـذه الوصـية بالوحدة الموضـوعية إذ أنهـا ـ كلها ـ فى موضوع واحد وهو كيفية معاملة المرأة لزوجها ٠

والأم هنا بلغت درجة عظيمة من الحكمة والعقل ، اذ أسـتطاعت أن تقرب ابنتها إليها حتى احتضنتها وكأنهـا لا تزال صغيرة فنادتهـا (أى بنيـة) ٠

ثم ذكرت هدفها من وصيتها ، فبينت خلال ذلك لابنتها أنها فتاة عاقلة ، مؤدبة ، ولكنها تذكرة ومعونة ٠

وحرصت الأم على أن تبين لابنتها أسباب غضب الزوج فى بعض الوصايا التى قد تحتاج الى بيان (فان تواتر الجوع ملهبة٠ وتنغيص النوم مغضبة ٠٠ فإنك إن عصـيت أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غـدره ٠٠) ٠

أى عقليـة حكيمة تلك ٠٠ ما أحوج المجتمـع لمثل تلك الأم التى ترجو لابنتها السـعادة والتوفيق فى حياتها الجديدة ٠

سـمات عـامة للوصـايا

* تكثـر فى الوصـية الأسـاليب الإنشـائية ولا سـيما أفعال الأمـر والنهى والإغراء والتحذير ٠٠ وعليـه تقل الجمل الخبرية ٠
* يحاول الموصى أن يعلل لمـا يأمـر به أو ينهى عنـه ، ويذكر نتائج الائتمار بالأمر والانتهاء عن النهى وذلك كما فى قول ذى الإصبع : ألن جانبك لقومك يحبوك ٠٠ وتواضع لهم يرفعوك ٠٠ الخ ٠

وقول أمامــة : فكونى له أمــة يكن لك عبــدا ، واحفظى لــه خصــالا عشرا يكن لك ذخــرا .. الــخ .

* يغلب على الوصــايا القصر حتى يســهل حفظها ، لأن كثرة الكلام ينسى بعضــه بعضــا .
* يكــون الموصى - آن الوصــية - هادئا ، رزينا ، متزنا .
* الوصية تجمع أفكارا ومعانى متباعدة لا يربطها رابط ، ومن هنا فقــدت الوحدة الموضــوعية غالبا .

(جـ) المفاخرات والمنافــرات

المفاخرة : هى مناظرة كلامية ، أو حوار بين رجلــين أو أكثر ، يبرز كل منهما مؤهلاته ، وأمجاده ، ومفاخره محاولا إثبات أفضليتــه وأحقيته للسيادة والشرف .. إذ أن الخصومة تكــون بسبب الزعامة .

والمنافرة : لجوء المختصمين الى من يحكــم بينهما ويفصــل فى المنافرة ، وإنما ســميت منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المنافرة : (أنا أعز منك نفــرا) .

أشــهر المنافــرات

* منافرة عامــر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة :(*)

وكان ســبب المنافرة :

أن عامرا عرض بعلقمة فى حديث له معه ، فرد علقمة على عامر ردا اعتبره مهانة له ، وطلب اليــه أن ينافره . وقيــل : انهما تنازعــا الرياســة فقال علقمة : إن شــئت نافرتك .

قال عامر : قد شــئت .

(*) راجع الأغانى (دار) ١٦/٢٨٣ - ٢٨٧

— قال عامر : والله لأنا أكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منـك قصـبا .

★ فقـال علقمة : لأنا خير منـك ليلا ونهارا .

— فقال عامر : لأنا أحب إلى نسائك أن أصـبح فيهن منك .

★ فقال علقمة : على ماذا تنافرنى يا عامـر ؟ .

فقال عامر : أنافرك على أنى أنحر منـك للقاح ، وخير منك فى الصباح (*) ، وأطعم منك فى السنة الشـياح (**) .

★ فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أنى جبان ، ولأن تلقى العدو وأنا أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلفك ، وأنت جواد والناس يزعمون أنى بخيل ولست كذلك ، ولكنى أنافـرك أنى خير منك أثرا ، وأحـد منك بصرا ، وأعز منك نفرا وأشرف منك ذكـرا .

— فقال عامر : ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ، ولكنى أنافـرك على أنى أنشر منك أمة (***) ، وأطول منك قمة وأحسن منك لمـة ، وأجعد منـك جمة وأبعد منك همـة .

★ قال علقمة : أنت رجل جسـيم ، وأنا رجل قصـير ، وأنت جمة وأنا قبيـح ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

— فقال عامـر : آباؤك أعمـامى ولـم أكن لأنافرك بهـم ، ولكنى أنافرك أنى خير منك عقبا ، وأطعم منك جـدبا .

★ قال علقمة : قد علمت أن لك عقبـا فى العشـيرة ...

(*) فى الصباح : أى عند الإغارة على الأعـداء .
(**) الشـياح : القحط ، يريد السـنة المجدبة .
(***) أى أكثر قومـا .

وهكذا مضيا فى المنافرة ثم اتفقا على الاجتكام الى حكم يحكم بينهما وذلك على مائة من الإبل الى مائة أخرى ٠

وذهبا الى (عامر بن مالك) فأبى أن يحكم لأحدهما ٠ فذهبا الى سفيان بن حرب بن أمية ، فكره أن يحكم منهما وقال : (أنتما كركبتى البعير الأدرم) (*) ٠

— فقال عامر : فأينا اليمين ؟ ٠

قال أبو سفيان : كلاكما يمين ، وأبى أن يقضى بينهما ، فانطلقا الى (أبى جهل بن هشام) فأبى أن يحكم بينهما ٠٠٠

وهكذا رفض كثير من مشاهير العرب أن يحكم بأنهما ، لكنهما مصران على أن يحكم بينهما ٠٠٠ الى أن وصلا الى (هرم بن سنان الفزازى) وكان رجلا ذكيا ، فقال :

لعمرى لأحكمن بينكما ثم لأفضلن ، ثم لست أثق بواحد منكما فأعطيانى موثقا أطمئن اليه أن ترضيا بما أقول ، وتسلما لما قضيت بينكما ، وأمرهما بالانصراف وطلب اليهما أن يعود اليه فى موعد حدده لهما ٠

فلما كان اليوم الموعود ذهب كل فريق الى هرم ومعهم القباب والجزر والقدور ينحرون ويطعمون ٠

وأرسل هرم الى عامر يستدعيه سرا ٠ فلما أن لقيه قال له : يا عامر ، قد كنت أرى لك رأيا ، وإن فيك لخيرا ، وما حسبتك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتنافر رجلا لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه ؟ فما الذى أنت به خير منه ؟

فأجاب عامر : نشدتك الله والرحم الا تفضل على علقمة ، فوالله

(*) الأدرم : الذى تراكب لحمه وشحمه حتى غطى عظامه ، والذى ذهبت جلدة أسنانه ودنا وقوعها ، أو الذى لا أسنان له ٠

لئن فعلت لا أفلح بعدها أبدا ، هـذه ناصيتى فاجززهـا واحتكـم فى مالى ، فإن كنت لابد فاعلا فسو بينى وبينـه .

فلما انصرف عامر أرسـل هرم الى علقمة فأتاه سرا : فقال له ما قال لعامر ، فأجاب بمثل ما أجاب .

أرسـل هرم الى بنيـه ورهطه وقال لهم : إنى قائل مقالة غـدا بين هـذين الرجلين ، فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ، ويطرد بعضكم الآخر عشر جزائر فلينحرها عن عامـر ، وفرقوا بين الناس ولا تكونوا لهم جماعة ولمـا كان الغـد قام هرم قائلا : يا بنى جعفـر ، قد تحاكمتما عنـدى ، وأنتمـا كركبتى البعير الأدرم تقعان على الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلاكما سـيد كريم .

وهنا فعل رهط هرم ما أمرهم بالأمس أن يفعلوه ، فنحروا الجزر عشرا عن علقمة ، وعشرا عن عامر ، وفرقوا الناس ..

ولم يفضل هرم واحدا على صاحبه ، وكره أن يفعـل ذلك حتى لا يوقع العـداوة بين الحيين وهما أبناء عـم .

وبذلك اسـتطاع هـرم بحكمته وذكـائه أن ينهى هـذه السلسـلة الحوارية المضطرمة بين الرجلين .

وقد عمر (هرم) إلى أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنـه ـ فقال له عمر : أيهما كنت منفرا ؟

فقال : يا أمير المؤمنين : لو قلتها الآن لعادت جذعـة .

فقال له عمر : إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

وانك لتلاحظ بعد قراءة هـذه المنافرة :

★ أن كلا من المتنافرين يعرض أبرز ما يتصف به وهو ليس موجودا عنـد خصـمه .

* الخصم يقر بذلك فيضرب عنه ويبدأ بإبراز جانب آخر يتفوق فيه على خصمه .
* المفاخرة التى ذكراها منها ما هو خلقى ومنها ما هو نفسى وخلقى ..
* الأسلوب سهل ، ملس ، والمعانى واضحة لا غموض فيها ولا التواء .
* تنم هذه المنافرة عن قدرة هؤلاء العرب على الجدل والخصام وطول نفسهم فى ذلك .
* معالجة المحكمين للمشكلة تبين عن عقليات راجحة عند العرب ولا سيما ما كان من هرم ـ كما ذكرنا .

(د) الحكم والأمثال

* **الحكمة** : قول رائع يتضمن حكما صحيحا ، مسلما به عند أكثر الناس ، ويكون موجزا ، بعيدا عن الحشو ، وليس شرطا أن يكون صاحب الحكمة شيخا أو هرما ، فقد يكون صغير السن ولكنه أوتى نفسا حساسة ، وبصيرة نافذة كما كان طرفة بن العبد مثلا .

وهذه الحكمة تكون عبارة عن خلاصة تجربة حياتية عاشها صاحبها .

وممن اشتهر بالحكمة بين الجاهليين : أكثم بن صيفى ، وعامر ابن الظرب العدوانى (وغيرهما) ..

فمن أقوال أكثم :

(ويل للشجى من الخلى) ..

(لا تطمع فى كل ما تسمع) ..

(حافظ على الصديق ولو فى الحريق) ..

★ ومن أقوال عامر بن الظرب :

(رب زارع لنفسه حاصد سواه . من طلب شيئا وجده ، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه) .

★ المثل : قول يشبه مضربه بمورده ، ولابد له من أصل يكون قد قيل من أجله ، وهذا هو الفرق بين الحكمة والمثل .

وتحمل لنا الأمثال صورة للنثر فى العصر الجاهلى ، وذلك أن قصرها أعان على حفظها ، كما أن العرب سارعوا إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول الهجرى ..

وهناك كتب عديدة مشهورة عنيت بجمع أمثال العرب ومن أشهرها :

مجمع الأمثال للميدانى ، وأمثال العرب للمفضل الضبى ، وجمهرة الأمثال للعسكرى ..

★ نموذج للأمثال :

(إن العصا من العصية) (١٣) .

قال أبو عبيد : هكذا قال الأصمعى ، وأنا أحسبه : العصية من العصا ، إلا أن يراد أن الشىء الجليل يكون فى بدء أمره صغيرا كما قالوا : إن القرم من الأفيل(١٤) ، فيجوز حينئذ على هذا المعنى أن يقال : العصا من العصية .

قال المفضل :

أول من قال ذلك (الأفعى الجرهمى) ، وذلك : أن (نزارا) لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر وإياد وربيعة وأنمارا ، فقال :

---

(١٣) راجع : مجمع الأمثال للميدانى ١/٢٢ - ٢٥

(١٤) القرم : الفحل من الإبل ، الأفيل : ابن المخاض ..

يا بنى ، هذه القبة الحمراء ـ وكانت من أدم ـ لمضر ، وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم ، وكانت شمطاء ـ لإياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون ، فائتوا الأفعى الجرهمى ، ومنزله بنجران ..

فتشاجروا فى ميراثه ، فتوجهوا إلى الأفعى الجرهمى ، فبينما هم فى مسيرهم إذ رأى مضر أثر كلأ قد رعى ، فقال :

إن البعير الذى رعى هذا لأعور .

وقال ربيعة : إنه لأزور (١٥) .

وقال إياد : إنه لأبتر (١٦) .

قال أنمار : إنه لشرود (١٧) .

فساروا قليلا فإذا هم برجل ينشد جمله ، فسألهم عن البعير .. فقال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم .

قال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم .

قال إياد : أهو أبتر ؟ قال : نعم .

قال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم .. وهذه والله صفة بعيرى فدلونى عليه !

قالوا : والله ما رأيناه ، قال : هذا والله الكذب ، وتعلق بهم وقال : كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيرى بصفته ؟

فساروا حتى قدموا نجران ، ، فلما نزلوا نادى صاحب البعير : هؤلاء أخذوا جملى ووصفوا صفته ، ثم قالوا : لم نره .

---

(١٥) الأوز : من مال أحد جانبيه على الآخر .
(١٦) الأبتر : مقطوع الذنب .
(١٧) الشرود : النافر .

فاختصموا إلى الأفعى ، وهو حكم العرب ، فقال الأفعى : كيف وصفتموه ولم تروه ؟

قال مضر : رأيته رعى جانبا وترك جانبا فعلمت أنه أعور .

وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته فعلمت أنه أزور ، لأنه أفسده بشدة وطئه لازوراره .

وقال إياد : عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ، ولو كان ذيالا لمصع به(١٨) .

وقال أنمار : عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى فى المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث نبتا ، فعلمت أنه شرود .

فقال للرجل : ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ، ثم سألهم : من أنتم ؟ فأخبروه، فرحب بهم، فقال : أتحتاجون إلى وأنتم كما أرى ؟.. ثم أنزلهم فذبح شاة ، وأتاهم بخمر : وجلس لهم الأفعى حيث لا يرى وهو يسمع كلامهم ، فقال ربيعة : لم أركاليوم لحما أطيب منه لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة !

فقال مضر : لم أر كاليوم خمرا ، أطيب منه لولا أن حبلتها(١٩) نبتت على قبر !

فقال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسرى منه لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له ! .

فقال أنمار : لم أر كاليوم كلاما أنفع فى حاجتنا من كلامنا ، فكان كلامهم بإذنه .

فقال : ما هؤلاء إلا شياطين . ثم دعا القهرمان ، فقال :

---

(١٨) مصع به : رمى به ..
(١٩) الحبل : القضيب من شجر العنب .

ما هـذه الخمرة وما أمرها ؟ قال : هى من حبلة غرستها على قبـر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها .

وقال الراعى : ما أمـر هـذه الشـاة ؟ قال : هى عنـاق(٢٠) أرضعتها بلبن كلبـة ، وذلك أن أمهـا كانت قد ماتت ، ولم يكـن من الغنم شـاة ولدت غيرها .

ثم أتى أمـه فسألها عن أبيـه ، فأخبرته أنهـا كانت تحت ملك كثير المـال ، وكان لا يولد له ، وقالت : فخفت أن يموت ولا ولد لـه فيذهب المـلك ، فأمكنت من نفسى ابن عم له كان نازلا عليـه .

فخرج الأفعى إليهم ، فقص القـوم عليـه قصتهم وأخبروه بمـا أوصى به أبوهـم .

فقال : ما أشـبه القبـة الحمـراء من مـال فهـو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى (مضر الحمراء) لذلك .

وقال : وأما صـاحب الفرس الأدهم والخباء الأسـود ، فلـه كل شىء أسـود ، فصارت لربيعة الخيل الدهم ، فقيل (ربيعة الفرس) .

وما أشـبه الخادم الشمطاء فهـو لإياد ، فصـار له المـاشية البلق من الحبلق والنقـد(٢١) فسمى (إياد الشـمطاء) .

وقضى لأنمار بالدراهم وبما فضـل ، فسمى (أنمار الفضل) .

فصدروا من عنـده على ذلك ، فقال الأفعى : (إن العصـا من العصـية) (وإن خشـينا من أخشـن) ومسـاعدة الخاطل تعـد من الباطل ، فأرسلهن مثلا ..

---

(٢٠) العناق : أنثى المعـز .

(٢١) الحبلق : غنم صـغار لا تكبر . والنقـد : جنس من الغنم قبيـح

وخشين واخشن : جبلان احدهما اصغر من الآخر ٠

والخاطل : الجاهل ، والخطل من الكلام : اضطرابه ٠

والعصية : تصغير تكبير ، والمراد انهم يشبهون اباهم فى جودة الرأى ٠

وقيل : إن العصا اسم فرس ، والعصية : اسم امه ، يراد انه يحكى الأم فى كرم العرق وشرف العتق ٠

هذا هو اصل المثل ٠٠

★ ومن سمات الأمثال :

الإيجاز ٠٠

— جمال الصياغة ٠٠

— الجمال الموسيقى عن طريق السجع ، أو تشطير المثل ٠

— فطرية التعبير وبساطته ، إذ لا تحس تكلفا ، ولا تشعر بمشقة أو إجهاد او بمحاولة التانق فى الصياغة ، اللهم إلا فى القليل ٠

(هـ) سجع الكهان

استطاع كهان الجاهلية بما أوتوا من السنة فصيحة أن يتسلطوا على الناس ، فاضفوا على انفسهم المهابة والاجلال ٠

يقول النويرى فى نهاية الأرب (٢٢) :

(وكانت كهنة العرب لهم أتباع من الشاطين يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار فيلقونها لمن يتبعهم ويسالهم عن خفيات الأمور حتى جاء الإسلام فمنعت الشياطين من استراق السمع) والقرآن يقرر

---

(٢٢) نهاية الأرب ١٣٨/٣

ذلك فيقـول على لسانهم : (وأنا كنا نقعـد منها مقاعد للسـمع فمن يستمع الآن يجـد له شـهابا رصـدا) ..

أخـذ الناس يلجـأون إلى الكهان ويستشيرونهم فى مستقبلهم ، فعمد الكهان إلى سـجع مصطنع ، فيـه غموض وإبهام وتعميـة على السـائل ، وهـم يقصدون ذلك قصـدا حتى يلقوا الرعب فى قلـوب السائلين وذوى الحاجات ، ويوهموهم أن هـذا الكلام صادر من جهات لا يعرفها سوى الكهان ، وكانوا يسمون تابعيهم اللذين يوحون إليهـم باسم (الرئى) وأكثرهم كان يخـدم بيوت أصنامهم وأوثانهم .

★ ومن أشهر كهـان العرب فى الجاهلية :

المـأمور الحارثى ، سطيح الذئبى ، عزى سلمة ، طريفة ، فاطمة الخثعمية ، زبراء ، الزرقاء بنت عدى ، الخمس التغلبى ، سواد بن قارب ، شـق حـازى جهينة(٢٣) .

★ نمـاذج من سـجع الكهان :

يقول عزى سـلمة :

(والأرض والسماء، والعقاب الصقعاء(٢٤) ، واقعة ببقعاء(٢٥)، لقد نفر(٢٦) المجد بنى العشراء(٢٧) ، للمجد والسناء) .

---

(٢٣) راجع : البيان والتبيين ٢٩٠/١ وغيره .

(٢٤) الصقعاء : التى فى وسـط رأسها بياض .

(٢٥) البقعاء : هى من الأرض للعزاء ذات الحصى الصغار .

(٢٦) نفرهم : حكم لهم حين تنافروا اليـه مع خصومهم .

(٢٧) بنو العشر : من بنى مازن بن فزازة بن ذبيان .

ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون ، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع ، الحديث المروى عن أبى هريرة ، فقد حدث أنه : (اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما فى بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله - ﷺ - فقضى رسول الله : أن دية جنينها غرة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها (أى عصبتها الذين يتضامنون معها فى دفع الدية) .

فقال حمل بن النابغة الهذلى :

يا رسول الله ، كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل ، فقال رسول الله - ﷺ - :

إنما هذا من إخوان الكهان ، من أجل سجعه الذى سجع .

★ **سمات السجع :**

- لم يكونوا يقصدون إلى معان واضحة ، بل أرادوا التعمية ، وأن يذهب الناس فى تفسير ما يقولون كل مذهب .
- أكثروا من الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والبحار والسحب والليل .. إلخ .
- بنوا كلامهم على جمل قصيرة .
- التكلف واضح بين فى بناء سجعهم .

السمات العامة للنثر فى العصر الجاهلى

★ **المعانى والأفكار :**

- اتسمت المعانى بالوضوح والصراحة بحيث لا يحتاج إلى كد الذهن أو التعمق فى الخيال باستثناء سجع الكهان الذين عمدوا إلى الإبهام والغموض .
- كان هذا الوضوح ملائما لتلك البيئة العربية فى شبه الجزيرة

ذات السماء الصافية ، والشمس الساطعة ، والنجوم اللامعة .

— استمدوا معانيهم من بيئتهم التى عاشوا فيها ، فكانت فطرية ..

— تجلت العصبية القبلية فى هذا النثر ، ولا سيما فى المفاخرات والمنافرات .

— اعتمدوا فى تصويرهم للبيئة على قوة الملاحظة ، ودقة الإحساس ورقة الشعور .

— كانت عاطفتهم قوية متدفقة .

★ **الألفاظ والأساليب :**

— فى النثر تبدو الألفاظ واضحة لا غموض فيها ولا إبهام ، وقد تاتى - أحيانا - بعض الألفاظ فتظنها غريبة ، ولكن بالنسبة إلينا لبعد المسافة بيننا وبينهم فى الزمن .

— عنى الجاهليون بالألفاظ والعبارات فاختاروها بكل دقة ، وجاءت قوية ، جزلة ، فى شكل موسيقى جذاب .

— مالوا إلى قصر الجمل ، وإيجاز العبارات حتى يسهل حفظها ولا سيما فى الحكم والأمثال .

— غلب السجع فى المفاخرات والمنافرات . والحكم والأمثال ، وكان متكلفا فى سجع الكهان .

تم بحمد الله

المراجـــع

١ ـ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ..

محمد هاشـم عطيـة ـ ط الحلبى .

٢ ـ اسـد الغابة فى معرفة الصحابة .. ابن الأثير . ط الشعب .

٣ ـ أسس النقـد الأدبى ..

د/ أحمد أحمد بدوى ـ ط نهضـة مصر .

٤ ـ الأسـاطير .. دراسـة حضارية مقـارنة ..

د/ أحمـد كمـال زكى .

٥ ـ الأشـباه والنظائر (حماسـة الخالديين) .

تحقيق د/ السـيد محمد يوسـف سـنة ١٩٨٥

٦ ـ الأصمعيات للأصمعى ـ تحقيق وشرح شـاكر وهارون .

٧ ـ أميـر الشـعر فى العصر القـديم ـ

محمد صـالح سـمك ـ ط نهضـة مصر .

٨ ـ الأمـالى ـ للقالى ـ ط دار الكتـب ١٩٢٦م .

٩ ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ـ

للألوسى ـ تحقيق محمد بهجة الأثرى ـ بيروت .

١٠ ـ البيـان والتبيين ـ للجاحظ ـ تحقيق هـارون ـ ط

١١ ـ التذكرة الفخرية ـ للأربلى ـ

تحقيق نورى القيسى وآخر ـ ط العراق .

١٢ ـ التطور والتجديد فى الشـعر الأموى د/ شوقى ضيف ط سادسة .

١٣ ـ تهـذيب التهـذيب لابن حجر العسـقلانى ـ

دار صـادر ـ بيـروت .

١٤ - **التوجيه الأدبى** - د/ طه حسين وآخرون سنة ١٩٤٠م ٠

١٥ - **تاريخ آداب العــرب - بروكلمان -**

ترجمة د/ عبد الحليم النجار - دار المعارف ٠

١٦ - **تاريخ التراث العربى** - فؤاد سزكين - ط السـعودية ٠

١٨ - **تاريخ مدينة دمشــق - لابن عسـاكر -**

تحقيق د/ شكرى فيصل وآخرين - ط دمشــق ٠

١٩ - **تاريخ النقــائض فى الشــعر العربى**

د/ أحمد الشــايب - ط سـنة ١٩٤٦م ٠

٢٠ - **جمهرة اشــعار العــرب - القرشى ٠**

٢١ - **جمهــرة انســاب العرب -**

ابن حزم - تحقيــق هــارون - دار المعــارف ٠

٢٢ - **جمهــرة خطب العــرب - أحمد زكى صــفوت ٠**

٢٣ - **خـزانة الأدب - البغدادى -**

تحقيق هــارون - ط دار الكاتب العــربى ٠

٢٤ - **الخنســـاء -**

د/ بنت الشاطىء - (سلسلة نوابغ الفكر العربى) دار المعارف ٠

٢٥ - **الخنساء شــاعرة بنى ســليم**

د/ محمد جابر الحينى ٠ (سلسلة أعلام العرب) ٠

٢٦ - **دراســات فى الأدب العــربى -**

غوستاف فون غرنباوم - ترجمة د/ احســان عباس وآخــرين - ط بيروت ٠

٢٧ - **دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجانى -**

تحقيق شــاكر - ط الخــانجى ٠

٢٨ ـ ديوان حسان بن ثابت ـ شرح البرقوقى ـ ط بيروت •

٢٩ ـ ديوان الخنساء ـ

ط الثقافية بيروت • وأخرى بتحقيق د/ ابراهيم عوضين •

٣٠ ـ ديوان العباس بن مرداس ـ ط بغداد •

٣١ ـ ديوان امرىء القيس •

٣٢ ـ الروائع من الأدب العربى •

د/ يوسف خليف وآخرين ـ ط هيئة الكتاب •

٣٣ ـ شرح أشعار الهذليين •

٣٤ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ

ابن الأنبارى ـ تحقيق هارون •

٣٥ ـ شعر تابط شرا ـ دراسة وتحقيق سلمان داود القرة غولى وجبار تعبان الجاسم ـ العراق •

٣٦ ـ الشعر الجاهلى ـ محمد النويهى •

٣٧ ـ الشعراء وانشاد الشعر •

د/ على الجندى ـ دار المعارف سنة ١٩٦٩م •

٣٨ ـ شعر خفاف بن ندبة ـ ط العراق •

٣٩ ـ الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى •

د/ عبده بدوى ـ ط هيئة الكتاب •

٤٠ ـ الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى •

د/ يوسف خليف ـ دار المعارف •

٤١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ

تحقيق أحمد شاكر ـ دار المعارف •

٤٢ ـ الصحاح للجوهرى •

٤٣ ـ الصعلكة والفتوة الإسلام ـ أحمد أمين •

٤٤ - **صوت الشاعر القديم** -

د/ مصطفى ناصف - هيئة الكتاب .

٤٥ - **طبقات فحول الشعراء - ابن سلام** -

تحقيق شاكر - ط المدنى .

٤٦ - **طرفة بن العبد - حياته وشعره** - د/ محمد على الهاشمى .

٤٧ - **العصر الجاهلى** . د/ شوقى ضيف - دار المعارف .

٤٨ - **العقد الفريد لابن عبد ربه** -

تحقيق د/ مفيد محمد قميحة - بيروت .

٤٩ - **العمدة لابن رشيق** - ط السعادة ، ط دار الجيل .

٥٠ - **عيار الشعر لابن طباطبا العلوى** -

تحقيق د/ طه الحاجرى و د/ زغلول سلام .

٥١ - **الفتوة عند العرب - عمر الدسوقى** - ط لجنة البيان العربى .

٥٢ - **فحولة الشعراء للأصمعى** - تحقيق د/ خفاجى - ط أولى .

٥٣ - **الفن ومذاهبه فى النثر العربى** -

د/ شوقى ضيف - دار المعارف .

٥٤ - **فن الوصف - ايليا حاوى** - ط بيروت - الثانية .

٥٥ - **فى الأدب الجاهلى** - د/ طه حسين - دار المعارف .

٥٦ - **فى تاريخ الأدب الجاهلى** -

د/ على الجندى - ط دار المعارف .

٥٧ - **فى الشعر الإسلامى والأموى** -

د/ عبد القادر القط - بيروت .

٥٨ - **قراءة ثانية لشعرنا القديم** - د/ مصطفى ناصف .

٥٩ - **القاموس المحيط للفيروز ابادى** .

٦٠ - **لسان العرب - لابن منظور** .

٦١ - **لطائف المعارف - للثعالبى** .

٦٢ ـ المؤتلف والمختلف للآمدى .

٦٣ ـ المثل السائر لابن الأثير ـ

تحقيق د/ طبانة و د/ الحوفى ط السعودية .

٦٤ ـ مجمع الأمثال للميدانى ـ تحقيق أبى الفضل .

٦٥ ـ المحبر لابن حبيب .

٦٦ ـ المرشد الى فهم أشعار العرب ـ د/ عبد الله الطيب ـ بيروت .

٦٧ ـ مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ـ

د/ عبد الحليم حفنى ـ هيئة الكتاب .

٦٨ ـ معجم الشعراء للمرزبانى .

٦٩ ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها

د/ أحمد مطلوب ـ ط العراق .

٧٠ ـ معلقات العرب ـ د/ بدوى طبانة ـ ط أولى .

٧١ ـ المفضليات ـ للمفضل الضبى .

٧٢ ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ـ

تحقيق د/ خفاجى ـ ط الكليات الأزهرية .

٧٣ ـ النقائض لأبى عبيدة .

٧٤ ـ نهاية الأرب للنويرى ـ ط دار الكتب .

٧٥ ـ النوادر لأبى سعيد بن أوس الأنصارى .

٧٦ ـ الوساطة للقاضى الجرجانى ـ

تحقيق البجاوى وأبى الفضل ط الحلبى .

٧٧ ـ الوصف فى الشعر العربى .

عبد العظيم قناوى ـ ط الحلبى سنة ١٩٤٩م .

محتويات الكتاب

الموضـوع | رقم الصفحة

تصـويب الأخطـاء

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
المقدمة	١٥	ناوا	ناوأ
٦	١٠	الشيفرى	الشنفرى
٦	١٣	ورغم أنه	ورغم أنهم
١٢	٧ هامش	والقطير	والقطمير
١٨	٦	فلم ترى	فلم تر
٢٤	١٧	عممى	عمى
٢٦	٥	ورغاء البغير	ورغاء البعير
٢٩	آخر سطر بالهامش	وأبو فرغان	أو أبو فرغان
٣٠	أول سطر بالهامش	قوم بنى جشم	قوم من بنى جشم
٥١	١٦	ورو البيت	ورواية البيت
٥٣	٢	أكتفى	اكتفى
٥٧	٦	ولا وليدا	لا وليدا
٦٢	١٤	البى	الظبى
٦٣	١	عمرو بن عند	عمرو بن هند
٦٥	٢	وقيل وهو	وقتل وهو
٦٧	٦ هامش	ضبيعة	ابن ضبيعة
٦٨	١٥	صوت رحلة	صورت رحلة
٦٩	١٤	الجيبة ديارها	الجيبة وديارها

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٧٠	١ هامش	الذى كان	الذى كاد
٧٠	٧ هامش	وضؤوها	وضوؤها
٧٥	٦	شاعرنا أساسيا	شاعرنا شيئا أساسيا
٧٩	١٧	الزور رمز	الثور رمز
٧٩	١٧	تنظر من	تنظر فى
٨٠	٨	إن أن	إذ أن
٨٥	٣	كوم الدجن	يوم الدجن
٨٥	١٢ هامش	يخرج ن شعبه	يخرج من شعبه
٨٥	١٥ هامش	وتحضير الشجر	وتخضيد الشجر
٨٨	قبل الأخير	طرفة وصف	طرفة فى وصف
٩٢	٢	محنيا	محنبا
٩٣	١٧	ما ينقلون	ما ينتقلون
٩٤	٣	تششتد	تشتد
٩٥	٨	كان سبب	كان بسبب
١٠٢	٤	مكننة	مكنته
١٠٨	٢ هامش	للشربينى	للشريشى
١٠٩	١٩	- إلا قله -	- إلا أقله -
١١٢	١٢ هامش	فتحشوم تماما	فتحشوم تماما

* * *

تعريف بالمؤلف

الاسم : زكريا عبد المجيد عبد الهادى النوتى .

من مواليد قرية كفر الشعبانية ـ سمنود ـ غربية فى ١٩٥٦/١١/١٥

اتم حفظ القرآن الكريم وهو فى التاسعة من عمره .. ودخل مسابقة القبول الأزهرية سنة ١٩٦٨ والتحق على اثرها بالأزهر الشريف .

- حصل على الإعدادية الأزهرية ١٩٧١ وكان ترتيبه على مستوى الجمهورية (السابع والثلاثين) .

- ثم حصل على الثانوية الأزهرية ١٩٧٥ وكان ترتيبه (الثانى) على مستوى الجمهورية .

- التحق بكليه اللغة العربية بالقاهرة فى العام نفسه وكان ترتيبه (الأول) على دفعته فى السنوات الأربع ونال درجة الليسانس بتقدير (جيد جدا مع مرتبة الشرف الأولى ١٩٧٩) .

- عين معيدا فى قسم الأدب والنقد بالكليه ١٩٨١ ونال درجة التخصص الماجستير ١٩٨٦ فى موضوع « خالد الجرنوسى » حياته وشعره « بتقدير ممتاز » .

- حصل على درجة العالمية « الدكتوراه » ١٩٩٠ فى موضوع « شعر قبيلة بنى سلمه من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى » « بتقدير مرتبة الشرف الأولى » .

نتاجه العلمى :

١ - تفسير « **بحر العلوم** » لأبى الليث السمرقندى تحقيق (بالاشتراك) .

٢ - تفسير (**البحر المحيط**) لأبى حيان .. تحقيق (بالاشتراك) .

٣ - كتاب الذريعة فى الأعداد الواردة فى الشريعة - تحقيق

٢ - تفسير (**البحر المحيط**) لأبى حيان .. تحقيق

٤ - كتاب الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى .. تحقيق (بالاشتراك) .

٥ - الأدب الجاهلى تاريخه وقضاياه - تاليف

٦ - الأدب الأموى - تاريخه وقضاياه - تاليف

٧ - درر من الأدب الجاهلى - تاليف

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٩٣ / ٢١٧٣

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٩١٩٧٢٤